الفصل السادس

فترة الفتنة

obeikandl.com

١ – السياسة بين الانقلابات والاضطرابات :

ليس لهذه الفترة طابع سياسى أصدق مما وصفت به من أنها فترة الفتنة المبيرة . فقد عانت الأندلس منذ سقوط الدولة العامرية إلى قيام الحكم الجمهورى[١] فتنة طاحنة ، كان من آثارها أن قتل كثير من الأندلسيين وتفككت وحدتهم وتصدعت قوتهم وأهدرت قيمهم . وذلك لأن السلطان ظل موضع نزاع بين الأمراء الأمويين أولا ، ثم بينهم وبين الرؤساء البربر ثانياً[٢] ، وقد دفع حب الغلبة بعض هؤلاء وهؤلاء إلى الاستعانة بالأمراء المسيحيين ؛ وكان الثمن هو تسليم بعض المدن والحصون الأندلسية ، وإباحة العاصمة قرطبة لجند الإسبان الداخلين مع المتغلبين .

---

(١) تبدأ فترة الفتنة من سنة ٣٩٩ وتنتهى ٤٢٢ هـ (١٠٠٩ – إلى ١٠٣١) م .

(٢) تولى الخلافة فى هذه الفترة من الأمويين والبربر :

محمد المهدى	من ٣٩٩	إلى ٤٠٠	هـ (١٠٠٨–١٠٠٩)	م المرة الأولى
سليمان المستعين	« ٤٠٠	« ٤٠٠	(١٠٠٩–١٠٠٩)	المرة الأولى
محمد المهدى	« ٤٠٠	« ٤٠٠	(١٠٠٩–١٠١٠)	المرة الثانية
هشام المؤيد	« ٤٠٠	« ٤٠٣	(١٠١٠–١٠١٣)	المرة الثانية
سليمان المستعين	« ٤٠٣	« ٤٠٧	(١٠١٣–١٠١٦)	المرة الثانية
الناصر على محمد حمود	« ٤٠٧	« ٤٠٨	(١٠١٦–١٠١٨)	
عبد الرحمن المرتضى	« ٤٠٨	« ٤٠٩	(١٠١٨–١٠١٨)	بشرق الأندلس
المأمون القاسم بن حمود	« ٤٠٨	« ٤١٢	(١٠١٨–١٠٢٢)	المرة الأولى
المعتلى يحيى بن حمود	« ٤١٢	« ٤١٣	(١٠٢٢–١٠٢٣)	المرة الأولى
المأمون القاسم بن حمود	« ٤١٣	« ٤١٤	(١٠٢٣–١٠٢٣)	المرة الثانية
عبد الرحمن المستظهر	« ٤١٤	« ٤١٤	(١٠٢٣–١٠٢٣)	
محمد المستكفى	« ٤١٤	« ٤١٦	(١٠٢٣–١٠٢٥)	
المعتلى يحيى بن حمود	« ٤١٦	« ٤١٧	(١٠٢٥–١٠٢٧)	المرة الثانية
هشام المعتد	« ٤١٧	« ٤٢٢	(١٠٢٧–١٠٣١)	

فقد ثار محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمير الأموى ، على عبد الرحمن بن أبي عامر وقوض الدولة العامرية وأنهى فترة الحجابة على ما هو معروف[١] ولكنه اضطهد البربر لأنهم كانوا أعوان العامريين وجندهم ، وطارد الصقالبة لأنهم كذلك كانوا رجال العامريين وخدمهم ، وتشدد مع الأندلسيين ونزع السلاح من كثير منهم ، لأنه كان يخاف هياجهم . وأعلن كذلك وفاة الخليفة هشام ، بعد أن أحضر جثة تشبه جثته ، وأشهد على الوفاة بعض الفقهاء ورجال القصر ، وشيع جنازة الخليفة وهو حى لا يزال ، إذ كان قد سجنه فى مكان خفى .

وبالإضافة إلى ذلك كله ، عُرف محمد بن هشام — رغم اتخاذه لقب المهدى — بالفسق والفجور والميل إلى الملذات ، كما اشتهر بالقسوة والعنف . وقد أثار كل ذلك العامة عليه ونفرهم منه . فانتهز الفرصة أمير أموى اسمه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر — وكان المهدى قد سجن أباه — فثار بطائفة من الحانقين على المهدى ، وتقدم إلى القصر وطلب من المهدى ترك الخلافة له . وفى أثناء ذلك عبث البربر بقرطبة ، وكان كثير منهم ضمن الثائرين ؛ فقام القرطبيون بمطاردة البربر لا دفاعاً عن المهدى وإنما دفاعاً عن أنفسهم . وقد استطاعوا أن يجلوهم عن قرطبة . وفى أثناء ذلك قتل الأمير الثائر على المهدى .

ولم تنته الفتنة عند هذا الحد ؛ فقام أمير أموى آخر ، هو سليمان بن الحكم بن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر ، وانضم إلى البربر المتحفزين خارج قرطبة ، فبايعوه بالخلافة ، وتلقب بالمستعين . وقد أراد المستعين وأعوانه البربر أن يحتشدوا لدخول قرطبة ؛ فاتجهوا أولا إلى مدينة سالم ، وطلبوا من حاكمها واضح أن ينضم إليهم فرفض ، فاتجهوا إلى أمير قشتالة[٢] وطلبوا منه المساعدة . وكان قد سبقهم إلى طلب المساعدة نفسها رسل من

---

(١) كانت حركة المهدى سنة ٣٩٩ هـ — ١٠٠٩م وكانت خلافته — منذ أن قام إلى أن قتل — عشرة أشهر .

(٢) اسمه سانشو جارثيا Sancho Garcia .

قبل المهدى . ولما كان الأمير القشتالى يعرف ضعف المهدى ، فإنه آثر مساعدة رسل المستعين ، واشترط لذلك الاستيلاء على حصون ومدن مما فى أيدى المسلمين . ولما أخذوا المؤن والمساعدات زحفوا على قرطبة ونازلوا المهدى وهزموه ، وأبيحت قرطبة للبربر والقشتاليين مدة[١] . وكان من نتائج هذه الحرب بين المهدى وجنده والمستعين وأعوانه ، قتل آلاف ، وغرق آلاف ، وتدمير الكثير من قصور قرطبة ، ونهب العديد من متاجرها ، وانتشار الرعب والأسى بين من بقى من سكانها . أما المهدى فقد فر إلى طليطلة ، وتتبعه المستعين . وقبل أن تناله يده كان واضح حاكم مدينة سالم الموالى للمهدى ، قد استنجد أميرى قطلونيا المسيحيين[٢] ، فأنجداه على شروط سخية فى صالح القطلونيين . ولما وصله المدد انضم إلى المهدى ؛ فاضطر المستعين إلى الانسحاب ثانياً إلى قرطبة . ولكن المهدى وواضحاً والقطلونيين تبعوه ، واستطاعوا هزيمته واضطراره إلى الفرار خارج قرطبة ، ووقعت العاصمة الأندلسية مرة ثانية[٣] فريسة لجيش منتصر يعاونه إسبان مسيحيون . وخرج القطلانيون من قرطبة بعد فترة مثقلين بالأسلاب .

وأخيراً رأى الجنود الأندلسيون التخلص من الأمويين المتنازعين ؛ فثاروا على المهدى وقتلوه[٤] ، وبايعوا من جديد هشاماً المؤيد الذى كان قد شيع المهدى منذ حين جنازته الكاذبة ، وعمل واضح وزيراً لهشام فى هذه المرة . وقد حاول سليمان استرداد السلطان فطلب العون من حليفه السابق أمير قشتالة ، فطلب هذا الحليف حصوناً من واضح ، وكأنه يهدده بمساعدة المستعين إن لم تسلم الحصون ؛ فاضطر واضح إلى التسليم .

---

(١) كان دخول المستعين على رأس البربر إلى قرطبة سنة ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م .

(٢) هما : رامون الثالث أمير برشلونة Ramon III de Barcelona
و إرمنجول أمير أرخيل Eermengol de Urgel .

(٣) كانت هذه المرة بعد المرة الأولى بستة أشهر .

(٤) كان ذلك فى آخر سنة ٤٠٠ هـ .

ومع هذا لم يسلم الأمر لهشام فى تلك الخلافة الثانية . فقد كان البربر خارج قرطبة يعيشون وينهبون ، حتى لقد دمروا الزهراء وحولوها إلى خرائب[١] . ثم حاصروا قرطبة . وكان القرطبيون قد ثاروا على واضح وزير هشام وقتلوه ، وجعلوا مكانه فى الوزارة ابن أبى مضاء وظلوا يدافعون عن مدينتهم حيناً ، ثم اقتحمها عليهم البربر بقيادة سليمان المستعين ، فدمروا ونهبوا وقتلوا فيها الكثير[٢] . واستدعى المستعين هشاما وأنبه على قبوله الخلافة . ويقال إنه قتله سراً ، ويقال إنه سجنه ففر بعد حين من سجنه وعمل عاملا عادياً فى الأندلس ثم هاجر إلى المشرق . وبهذا الغموض انتهت قصة هشام . أما المستعين فظل حيناً يحكم ، ولكن الميدان لم يخل له بانتهاء هشام والمهدى من بنى أمية ، فقد ظهر خطر جديد من غير الأمويين . ذلك أنه كان من قواد البربر الكبار الذين عاونوا المستعين أخوان ، أحدهما كوفىٌ بولاية سبته وطنجة ، وهو على بن حمّود ، والآخر كوفىٌ بولاية الجزيرة الخضراء وهو القاسم بن حمود . وقد تاقت نفس على إلى تولى الحكم فى الأندلس ؛ فهو بربرى ، والبربر هم ذوو القوة حينئذ ، وعلى رماحهم قامت دولة المستعين . فتحالف على بن حمود مع صقلبى من أعوان بنى عامر كان يلى المرية ، وهو خيران العامرى . واتفق معه على الزحف إلى قرطبة . وانضم البربر إلى ابن حمود . ولما خرج المستعين للقائه قبضوا عليه وسلموه لعلى فقتله . ثم دخل ابن حمود قرطبة ، وبويع بالخلافة[٣] ، وأخلص له خيران العامرى أول الأمر ، ثم ما لبث أن انقلب عليه ، وأخذ يدعو فى شرق الأندلس لأمير أموى جديد هو عبد الرحمن بن عبد الملك الناصر الذى بويع فى شرق الأندلس ولقب بالمرتضى . وقد انتهى أمر على بن حمود بأن اغتيل على أيدى بعض خدمه من أعوان الأمويين[٤] ، فخلفه أخوه القاسم بن حمود . وكان

---

(١) كان هذا التدمير المحزن سنة ٤٠١ هـ — ١٠١٠ م .
(٢) كان دخول سليمان والبربر هذه المرة سنة ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م .
(٣) كان ذلك سنة ٤٠٧ هـ — ١٠١٦ م .
(٤) كان ذلك سنة ٤٠٩ هـ — ١٠١٨ م .

حاكم سرقسطة قد دخل فى دعوة المرتضى ، وزحف مع خيران العامرى إلى غرناطة . ولكن هذا الزحف انتهى بالفشل ، لخلاف بين المتحالفين فهزم المرتضى وفر إلى إحدى القرى حيث قتل . وهكذا تخلص القاسم بن حمود من هذه الدعوة الأموية الجديدة . ولكن الأمر لم يستقر له ؛ فقد طمع ابن أخيه واسمه يحيى بن على بن حمود ، فى أن يكون الأمر له مكان أبيه ، فزحف إلى المغرب وانضم إليه كثير من البربر الناقمين على القاسم استخدامه للعبيد دونهم. ولما اقترب يحيى من قرطبة ، فرعمه القاسم إلى إشبيلية ، ودخل يحيى العاصمة الأندلسية ، التى وقعت من جديد فى أيدى جنود منتصرين[١] . ولم يستقر يحيى طويلا فى قرطبة ؛ فقد انفض أعوانه واضطر إلى اللجوء إلى مالقة[٢]. وعاد القاسم بن حمود من جديد إلى قرطبة. ولكنه لم يستقر أيضاً ؛ فقد ثار عليه القرطبيون وطردوه ، فهرب إلى إشبيلية ، ولكنه وجدها هذه المرة مغلقة الأبواب فى وجهه ، فاضطرب أمره ، حتى قبض عليه يحيى ابن أخيه ، فكانت نهايته على يديه .

وهنا اختار أهل قرطبة أميراً أموياً جديداً للخلافة ، فبويع عبد الرحمن بن هشام ابن عبد الجبار بن الناصر ، ولقب بالمستظهر[٣]. ولكن الأمر لم يستقر لهذا الخليفة الجديد ؛ فقد شبت ثورة ضده بزعامة أموى آخر ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر ، ونجحت الثورة وقبض على المستظهر وقتل[٤] . وبويع الأموى الجديد ، ولقب بالمستكفى[٥] . ولكن هذا الخليفة الجديد لم يحسن الحكم وأغضب رجالات قرطبة وأهل الفكر والرأى فيها ، فلجأوا إلى يحيى بن خالد وقتلوه . وعلم المستكفى بتجهز

---

(١) كان ذلك سنة ٤١٣ هـ — ١٠٢٣ م .

(٢) كان ذلك فى السنة التالية .

(٣) كان ذلك سنة ٤١٤ هـ — ١٠٢٣ م .

(٤) كان ذلك بعد أسابيع من مبايعته بالخلافة .

(٥) هو أبو ولادة الأديبة صاحبة ابن زيدون .

يحيى بن حمود للاستيلاء على قرطبة ، ففر متخفياً فى زى امرأة وخرج من قرطبة حيث دس له السم فمات . واختار القرطبيون يحيى بن حمود فكان الخليفة بها للمرة الثانية ، واكتفى أخيراً بإنابة وزير عنه للحكم ، وترك جنود لإقرار الأمن ، واستقر هو بمالقة . وكان يحيى بعيد النظر فى عدم بقائه بقرطبة هذه المرة ؛ إذ كانت الفتنة لا تترك لحاكم فرصة استقرار . ففى هذه المرة اتفق خيران العامرى حاكم ألمرية ، ومجاهد العامرى حاكم دانية ، على إخراج الحموديين وإعادة الحكم الأموى ، وكان القرطبيون قد ملوا حكم البربر ، فتآمروا مع زعيمى الصقالبة خيران ومجاهد على إنهاء الحكم الحمودى ، ثم طرد الحموديين من قرطبة بمعاونة الجند الصقالبة الموجودين فيها ؛ إذ فتحوا أبوابها للقوات التى أرسلها خيران ومجاهد ، وباغت الجميع البربر وطردوهم إلى غير رجعة . ثم حاول مجلس كبراء المدينة إعادة الحكم الأموى ، فاختار الوزير أبو الحزم بن جهور الأمير هشام بن عبد الملك بن الناصر ، أخا عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى . وتمت البيعة لهشام الثالث ، ولقب بالمعتد بالله[1] ، وكان بعيداً عن قرطبة حين بويع ، ثم استطاع الوصول إليها بعد صعوبات من الخارجين على الحكومة المركزية .

ولم تستقر الأمور باختيار الخليفة الجديد ؛ فقد خيب الآمال بعكوفه على الملذات وتبلده ، وتركه الأمور فى يد وزيره الحكم بن سعيد . وقد أساء هذا الوزير إلى العلماء وإلى الشعب باستهانته بالأولين وفرضه الضرائب الباهظة على الآخرين . وأضيف إلى ذلك منافسة الزعيم القرطبى الكبير ابن جهور له ؛ فعزم على إسقاطه وخلع خليفته . وكان الجند قد ثاروا لتأخير رواتبهم ، وفى الثورة قتل الوزير الحكم بن سعيد ، ونهب القصر ، واعتصم هشام الثالث بأحد الأبراج ، واجتمع مجلس الكبراء فى قرطبة بزعامة ابن جهور يبحث تلك الأحداث . وأخيراً استقر الرأى على إلغاء الخلافة نهائياً . ثم ركبوا وحولهم

---

(١) كان ذلك سنة ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م .

(٢) كان وصوله سنة ٤٢٠ — هـ ١٠٢٩ م .

حراسهم ومواليهم ، واتجهوا إلى القصر وناشدوا الثائرين بالكف عن أعمال العنف ، فرضخوا لهم . ثم نادوا هشاماً الثالث ووعدوه بالأمان إن تنازل عن الخلافة ، فتنازل وسجن ، وأعلن إنهاء الخلافة ، وآل الحكم إلى مجلس الكبراء الذى يرأسه ابن جهور ، وانتهت فترة الفتنة[1] سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) . وبدأ عصر جديد من عصور الأندلس سيكون موضوع كتاب تال إن شاء الله .

٢ — المجتمع بين الضياع والمرارة :

من البديهى أن مجتمعاً يعيش فى مثل تلك الظروف القاسية ، يكون مجتمعاً مضطرباً قلقاً ، منهار القيم شاعراً بالضياع مفعماً بالمرارة . وهكذا كان المجتمع الأندلسى أيام الفتنة المبيرة ، وخاصة المجتمع القرطبى ، حيث كثر تتابع الحكام أمويين وبربر ، وحيث تعدد انسحاب جيش منهزم ليدخل آخر منتصر ، وحيث شاع التدمير والسلب وكل أعمال العنف التى شملت الزاهرة والزهراء وقرطبة جميعاً .

ومن البديهى كذلك أن تعطل أمثال تلك الأحداث القاسية كل نشاط صناعى ، وتعرقل كل رخاء تجارى ، وتوقف كل نماء زراعى وأن تسبب المجاعات وتنشر الأوبئة وتشيع الكوارث[2] .

وطبيعى أن تنعكس ظلال فترة هذه الفتنة المبيرة على نفوس الناس فتملأها بالاضطراب والقلق ، وتفعمها بالمرارة والإحساس بالضياع ، وتدفعها إلى التماس الراحة والبحث عن

---

(١) انظر فى هذه الفترة : البيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٥٠ وما بعدها .

وانظر : Levi ProvenÇal, Historia, P, 457. ff.

(٢) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٣٠ ، ٣١ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .

وانظر : البيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٦٢ — ٦٤ ، ١٠١ — ١١٥ .

وانظر أيضاً : طوق الحمامة لابن حزم ص ١١٦ ، فهو يحدثنا عن أخ له مات بالطاعون الواقع فى قرطبة سنة ٤٠١ هـ .

المستقر . والناس مختلفون فى التماس راحة قلوبهم والبحث عما يقر نفسهم ؛ وذلك لاختلاف طبائعهم وظروف حياتهم . فمنهم من يجد راحته فى إغراق همومه فى الكأس ، وإفناء متاعبه فى الملذات ، ومنهم من يجد استقراره فى الهروب من قلقه إلى الانطواء ، والفرار من نفسه إلى العزلة ، ومنهم من يرى الراحة والاستقرار فى اللجوء إلى ذوى السلطان ؛ والعيش فى كنف أصحاب النفوذ . على أن من الناس من لاتسمح له الظروف بشىء من ذلك ، بل تقضى عليه بأن يكتوى بالنار حتى يحترق . وهكذا كان المجتمع الأندلسى فى فترة الفتنة ، وكان موقف أفراده إزاء لهيبها المحرق . فقد لجأت طائفة إلى الملذات وأقبلت على أنواع اللهو[1] ، كما انطوت طائفة أخرى على نفسها واعتكفت أوهاجرت بعيداً عن مناطق الاضطراب [2] . هذا على حين سعت طائفة ثالثة إلى الحكام تترضاهم على اختلافهم ، وتحرق البخور لهم على تباينهم ، وتمشى فى ركاب كل المنتصرين منهم[3]. كل هذا والغالبية العظمى من الأندلسيين — وخاصة القرطبيين — يعانون الفتنة كأشد ما تكون المعاناة ، ويكتوون بها كأقسى ما يكون الاكتواء .

لهذا كله شاع فى المجتمع الأندلسى على عهد الفتنة ؛ اللهو والنفاق والانطواء والحزن والشكوى ؛ وكلها كرد فعل للاضطراب والقلق وانهيار القيم والشعور بالمرارة والإحساس بالضياع .

٣ — الثقافة بين الجزر والمد :

كان من نتائج أحداث فترة الفتنة ، أن تعطل النشاط الثقافى وخاصة فى قرطبة

---

(١) انظر بعض أخبار محمد بن هشام بن عبد الجبار كشال لهذه الطائفة ، فى البيان المغرب ج ٢ ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) انظر سيرة أبى محمد بن حزم كشال لهذه الطائفة ، فى الفقرة التالية الخاصة ببعض علماء ذلك العهد .

(٣) انظر مواقف بعض الشعراء الذين يمثلون هذه الطائفة كالقسطلى وابن الحناط ، فى الذخيرة ق ١ م ١ .

مسرح المأساة ؛ فقد أغلقت المدارس وانفضت حلقات الدرس[١] وقتل بعض العلماء[٢]، وهاجر البعض إلى حيث يلتمس شيئاً من الأمن[٣] . على أن ذلك لم يخمد أنفاس الثقافة الأندلسية فى ذلك الحين ؛ فقد كانت هناك بقية من العلماء الأندلسيين الذين أدركوا الازدهار فى فترة الخلافة ، أو انتفعوا بقوة الدفع فى فترة الحجابة ، فحفظوا للأندلس كثيراً من علمها وتراثها رغم ما كان من فتنة مبيرة[٤] ، كما كان هناك بعض الأساتذة ممن وفدوا على الأندلس من أقطار إسلامية أخرى . وكان لهم فى الأندلس حينذاك جهاد علمى مشكور[٥] . كذلك كان فى بعض الأقاليم الأندلسية البعيدة عن مركز الفتنة حظ من النشاط العلمى ، بقدر ما أتيح لتلك الأقاليم من الاستقرار والهدوء . وقد كان شرق الأندلس من تلك الأقاليم التى نعمت ببعض الأمن ، فعرفت بعض المدن هناك فى تلك الآونة بحياة علمية على شئ من الخصوبة .

على أنه قد يأتى الخير من الشر ، كما يخرج الورد من الشوك ؛ فقد كان ممن خرجتهم فترة الفتنة برغم ما بها من أحداث وأهوال ، عالمان جليلان لهما مكانهما فى الصف الأول بين علماء الأندلس ، ولهما كذلك منزلتهما بين الأدباء ، ولذلك سنفرد كلا منهما بحديث فى هذا المقام ، لغلبة الجانب العلمى عليهما . هذان العالمان هما : أبو محمد ابن حزم ، وأبو مروان بن حيان .

---

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣١ .

(٢) كابن الفرضى صاحب «تاريخ» علماء الأندلس ، الذى قتل ضمن من قتل أيام اقتحام البربر لقرطبة سنة ٤٠٣ هـ .

(٣) مثل ابن حزم الذى ارتحل إلى شاطبة حيث ألف أعظم كتبه . (انظر سيرته فى هذا الفصل) .

(٤) من هذه البقية الصالحة من علماء الأندلس : أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور ، وكان أحد شيوخ الحديث (انظر : بغية الملتمس للضبى ص ١٤٣) وأبو محمد عبد الله بن يوسف الرهونى ، وكان مؤدباً محدثاً مجوداً للقرآن (انظر : الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٥٩٤) .

(٥) ألمع العلماء الوافدين على الأندلس فى تلك الآونة : أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ابن أبى يزيد المصرى ، وكان أديباً نسابة حافظاً للحديث عالماً بالأخبار . (انظر الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٧٥٦).

ابن حزم :

هو أبو محمد بن على بن أحمد بن سعيد بن حزم[١] ، ويلقب بالقرطبى نسبة إلى موطن ولادته ونشأته ، كما يلقب بالظاهرى نسبة إلى المذهب الفقهى الذى اشتهر به . وأصول ابن حزم تحيط بها ظلمة كثيفة ؛ فيقال : إن إسرته تنحدر من أصل فارسى ، حيث ينتهى نسبه إلى رجل من أهل فارس اسمه يزيد ؛ كان مولى ليزيد بن أبى سفيان ، ويقال : إن أسرة ابن حزم من أصل إسبانى ، وأن جده الأدنى كان حديث عهد بالإسلام . ويبدو أن هذا القول هو الأقرب إلى الصواب ؛ لأننا لا نعرف للموالى نسباً محققاً ، ولأننا لا نجهل ما كان من انتحال كثير من الأنساب العربية ما أمكن ، فإن لم يمكن فلتكن أنساب موال للعرب ؛ كل ذلك ليرتفع قدر منتحل النسب فيكون فى طبقة الغالبين الفاتحين . ومما يرجح هذا الرأى فى أصل ابن حزم ، ميل ابن حيان المؤرخ الأندلسى إليه[٢] . وقد كان ابن حيان معاصراً لابن حزم . فلعل جد ابن حزم أو أحد تلاميذه اصطنع هذا النسب الذى ينتهى به إلى فارس ويرفعه إلى مرتبة الفاتحين ، لأننا نستكثر على ابن حزم الفقيه الدقيق أن يصطنع نسباً غير صحيح .

ومهما يكن من أمر فأسرة ابن حزم كانت تعيش أولا فى إقليم لبلة[٣] Liebla وفى بلدة كانت تسمى « منت ليشم » وأصبحت تسمى اليوم « منتيخار أو « كاسا منتيخا

---

(١) اقرأ سيرته وبعض أخباره فى : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٤٠ وما بعدها ، وفى جذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٧٠٨ ، وفى بغية الملتمس للضبى ترجمة رقم ١٢٠٤ ، وفى الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٨٩١ ، وفى معجم الأدباء لياقوت ج ١٢ ص ٢٣٥ وما بعدها ، وفى وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٢٨ وما بعدها ، وفى طوق الحمامة لابن حزم ، وفى نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٣٥٨ وما بعدها . واقرأ دراسات عنه فى : ابن حزم صورة أندلسية للدكتور طه الحاجرى ، وفى : ابن حزم الأندلسى للشيخ محمد أبى زهير ، وفى مقدمة الترجمة الإسبانية لطوق الحمامة الذى قام بها الأستاذ جارثيا جومث .

(٢) انظر رأى ابن حيان فى : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٣) يقع هذا الإقليم فى غرب الأندلس قرب المحيط الأطلسى وبينهما نحو ستة أميال .

Casa Montija » وكانت تلك الأسرة أسرة متواضعة تعيش على ما تغله الأرض من الرزق . ثم تطلعت عيونها إلى أضواء عاصمة الأندلس ، وتحركت بهذا القانون الاجتماعى الذى يجذب الناس إلى العواصم ، فقررت الانتقال إلى قرطبة . وكان ذلك فى زمن سعيد بن حزم[1] ، جد عالمنا أبى محمد . والأنباء التى لدينا عن حياة سعيد هذا بقرطبة قليلة وغامضة ، وعلى العكس من ذلك أنباء ابنه أحمد ، فهى أكثر وأوضح . وأحمد هذا هو والد عالمنا أبى محمد بن حزم . فمن المعروف عن أحمد بن سعيد أنه كان أديباً بارزاً وعالماً صالحاً وإدارياً حازماً ؛ وكان إلى ذلك كله ذا مهارة عظيمة فى الاتصال بالأوساط السياسية وكسب ثقة الحكام . فسرعان ما تقدم إلى صفوف الإداريين ، واستمر فى تقدمه حتى كان وزيراً للمنصور بن أبى عامر . وهنا ارتفعت منزلته درجات ، وانتقل بيته من بلاط مغيث غربى قرطبة ، إلى مدينة الزاهرة شرقى العاصمة ، حيث قصر الحاجب القابض على زمام الأمور . وكانت لباقة أحمد بن سعيد عظيمة للغاية ؛ فقد استطاع أن يكسب ثقة المنصور مع الاحتفاظ بالولاء الصادق للخليفة الأموى ؛ ومن هنا ظل محتفظاً بمكانته عند الحاجب والخليفة جميعاً ، وظل بيته حتى شبت الفتنة من البيوت الرفيعة بين بيوت الوزراء والمرموقين .

فى هذا البيت ولد على بن حزم سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) ، ونشأ فى تلك الأسرة التى تعتبر إحدى الأسر الأرستقراطية الجديدة ، التى كانت تعيش فى ترف وحسن مظهر ، وتأخذ مكانها فى أعلى مستوى بين الأسر القرطبية .

وقد قضى صاحبنا فترة صباه فى حريم قصر أبيه ؛ حيث عهد إلى النساء بتربيته

---

(١) هذا ما ذهب إليه الأستاذ « أسين بلاثيوس » وتلميذه الأستاذ « جارثيا جوميث » أما الأستاذ الحاجرى فيرجح أن الهجرة إلى قرطبة كانت فى أيام حزم ، الجد الأكبر لأبى محمد .
(انظر ص ٢٩ من كتابه ابن حزم صورة أندلسية) .

وتحفيظه القرآن[١] .

ولعل السبب فى ذلك ما كان قد أصيب به على وهو صغير من مرض قلبى[٢] ؛ أو لعل السبب هو فرط التدليل أو الترف ، أو لعله شيء غير هذا وذاك ، فهذا لا يعنينا كثيراً ، وإنما الذى يعنينا هو أن ابن حزم نشأ فى هذه الفترة من حياته بين حريم القصور، وكانت نشأته مترفة ناعمة ، وكانت إلى ذلك على كثير من المحافظة ورعاية الخلق القويم . وقد أكسبته تلك البيئة النسوية كثيراً من الخبرة بأحوال النساء وأسرار نفوسهن ، كما أتاحت له تجارب عاطفية فتحت قلبه الغض على الحب والعشق ، كذلك أمدته تلك البيئة بكثير من قصص الغرام، وأطلعته على عديد من أحوال العشق ، ووجهته منذ حداثته إلى البحث فى فلسفة الحب .

أما ترف البيئة ونعومتها وأرستقراطيتها، فقد طبعته على رقة المزاج ونعومة المشاعر وإباء النفس . كما وجهته التربية المحافظة إلى الأخذ بالسلوك القويم والبعد عن كل ما يشين ، برغم ما كان فى صدر حياته من مخالطة لصنوف من النساء فى بيت أبيه وفى غيره من البيوت .

وبعد الخامسة عشرة تقريباً تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياة ابن حزم ، وهى مرحلة الخروج إلى الحياة والتحصيل والدرس والتعلم خارج البيت . وقد كان بدء هذه المرحلة حوالى سنة ٣٩٩ هـ[٣] ؛ حيث خرج أبو محمد إلى مجالس العلماء ، فتردد على ابن الجسور[٤] . وجلس إلى الرهونى[٥] ، وانضم إلى حلقات أبى القاسم المصرى[٦] ،

---

(١) انظر : طوق الحمامة ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ١٦ .

(٣) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٧٠٨ ، والصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٨٩١ ، وبغية الملتمس للضبى رقم ١٢٠٤ ، ونفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٣٥٩ .

(٤) انظر ترجمته فى : بغية الملتمس رقم ١٤٣ .

(٥) انظر ترجمته فى : الصلة رقم ٥٩٤ .

(٦) انظر ترجمته فى : الصلة رقم ٧٥٦ .

وأخذ عن هؤلاء وغيرهم ، واتجه حينئذ نحو العلوم الدينية بنوع خاص . وظل يواصل التحصيل فى قرطبة برغم ما بها من أحداث أوائل الفتنة . حتى اضطرته أعمال العنف ومطاردة أنصار الأمويين إلى الهجرة . فترك قرطبة سنة ٤٠٤ هـ[١] واختار مدينة ألمرية[٢] ، وهناك واصل درسه وتحصيله الذى بدأه فى قرطبة . ويبدو أنه فى المرية عنى بالدراسات الفلسفية والإسرائيلية ، حيث كان فى هذه المدينة جماعة من المشتغلين بالفلسفة وخاصة من أتباع ابن مسرة[٣] ، كما كان بها أيضاً بعض الإسرائيليين الذين اضطر ابن حزم إلى دراسة دياناتهم ، لينجح فى مناظراتهم[٤] .

ولكن الظروف لم تترك ابن حزم يفرغ للعلم الذى أخذ نفسه بتحصيله كأحسن ما يكون التحصيل ، بل دفعته إلى بعض النشاط السياسى الذى ربما كان يحرف المفكرين فى تلك الآونة عن رضا حيناً ، وعن سخط حيناً آخر . فقد قُبض علىَ ابن حزم فى ألمرية ، لما اشتهر به من الولاء للأمويين ، وسجن بها حيناً ثم نفى ، فتوجه إلى حصن القصر[٥] . ولما علم أن أموياً يدعى له فى بلنسية ، وهو عبد الرحمن الرابع الذى لقب بالمرتضى ؛ انتقل إلى بلنسية ليكون فى نصرة الأمير الأموى الجديد . ومعروف أن حركة هذا الأموى قد فشلت ، وأن أنصاره كانوا بين قتيل وفار ومعتقل . وقد كان الاعتقال نصيب صاحبنا ابن حزم ، حيث اعتقله صاحب غرناطة وسجنه حيناً ، ثم أطلقه . وقد توجه ابن حزم بعد ذلك إلى قرطبة سنة ٤٠٩[٦] ، بعد قيام القاسم ابن حمود على الخلافة بها ، وسلوكه أول الأمر مسلك المهادنة والترضية . واستأنف

---

(١) انظر : طوق الحمامة ١١٠ .

(٢) إحدى المدن الواقعة على البحر الأبيض فى الركن الجنوبى الشرقى من الأندلس .

(٣) انظر : الفصل ج ٤ ص ١٩٩ .

(٤) انظر : طوق الحمامة ص ١٧ . وكتاب الفصل ج ١ ص ١٠٢ .

(٥) انظر : طوق الحمامة ص ١١٧ .

(٦) انظر : طوق الحمامة ص ١١ .

ابن حزم فى قرطبة حياته العلمية والأدبية حيناً ، ثم دفعته الظروف إلى السياسة من جديد . فقد بويع فى قرطبة لأموى جديد ، هو عبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظهر ، وكان هذا الأموى محباً للمفكرين والأدباء ؛ فاستوزر بعضهم ، وجعل ابن حزم فى مقدمتهم . ولكن المستظهر سقط بعد قليل ، وقام مقامه المستكفى ، فسجن ابن حزم حيناً ؛ ولم يطلقه إلا سقوط المستكفى وتقوض خلافته . وخرج ابن حزم من السجن ، على عجز عن عمل أى شئ لنصرة بنى أمية ، وعلى مرارة مما لاقى من السياسة ، وربما كان على عزيمة أيضاً للانصراف إلى العلم ، فهاجر بعد قليل إلى شاطبه Jativa فى شرق الأندلس . وكان قد نضج علمياً وفنياً . وهناك ألف أعظم كتبه الأدبية « طوق الحمامة »[1] ثم ألف أعظم كتبه العلمية « الفِصَل فى الأهواء والنِّحَل »[2] .

ثم سقطت الخلافة الأموية نهائياً بالأندلس ، وساد عصر الطوائف ، فلم يعد هناك من تيارات السياسة ما يجرف ابن حزم من جديد ، بعد انتهاء دولة الأمويين الذين كان صاحبنا يكن لهم كل الولاء . وصارت حياة ابن حزم خالصة للعلم ، وتنقلا مستمراً بين أقاليم الأندلس المختلفة . وذلك لإشاعة علمه ، ونشر المذهب الظاهرى ، التى تحول إليه وآمن به وقضى بقية حياته منافحاً عنه ؛ فقد كان أول أمره مالكياً كأكثر فقهاء الأندلس ، ثم مال إلى المذهب الشافعى حيناً ، ثم تحول إلى الظاهرية فى قوة وإلى النهاية . ولعل هذا التحول كان بسبب نفرته مما تورط فيه الفقهاء من التأويل الكثير والتحوير الشديد والاستنباط المتضارب ، كما كان بسبب كراهيته

---

(١) انظر : طوق الحمامة ص ١ . وكان تأليف هذا الكتاب بين سنتى ٤١٧ و ٤١٨ كما يستفاد من إشارات فى الكتاب نفسه (انظر : ابن حزم صورة أندلسية للدكتور طه الحاجرى ص ١٥٣ – ١٥٤) .

(٢) وضع هذا الكتاب فى أيام آخر الأمويين فى الأندلس هشام الثالث الملقب بالمعتد . وقد نص على ذلك . وبذلك ينبغى أن يكون قد ألفه ما بين ٤١٨ – ٤٢٢ هـ (وانظر : ابن حزم للدكتور الحاجرى ص ١٥ – ١٦) .

لما كان عليه كثير من الفقهاء من نفاق ومجاراة للحكام وإخضاع للنصوص حسب هوى المتسلطين ؛ فدفعه ذلك دفعاً إلى التمسك بالظاهر والاحتكام إليه ؛ لأنه شيء لا يمكن التلاعب به ولا المساومة عليه . فكأن ظاهرية ابن حزم قد كانت رد فعل لظروف عصره وأحوال مجتمعه وما عاناه فى فترة الفتنة من محنة خلقية وعقلية[١] .

ومهما يكن من أمر فقد أبحر ابن حزم خلال تنقلاته إلى جزيرة ميورقة ، وكان عليها أحمد بن رشيق ، نائباً عن مجاهد العامرى الذى كان يحكم جزر البليار ، ويؤثر البقاء فى دانية ، وإنابة ابن رشيق عنه فى ميورقة . وفى تلك الجزيرة نشر ابن حزم مذهبه وأحدث ضجة علمية هائلة . فكثر تلاميذه ومؤيدوه ومعارضوه . ثم وفد على الجزيرة أبو الوليد الباجى ، وكان أحدث سناً من ابن حزم ، كما كان قريب عهد بالقدوم من المشرق ، وكان إلى ذلك ركناً من أركان المالكية فى الأندلس[٢] ؛ فناظر ابن حزم ، ويبدو أنه كتل كثيراً من الفقهاء ضده . ونفر حاكم الجزيرة منه . وهنا اضطر أبو محمد إلى ترك ميورقة والتنقل فى أقاليم أخرى من الأندلس . وأخيراً توجه إلى إشبيلية حيث المعتضد بن عباد . ولكن مقامه فى إشبيلية لم يطل ، وأغلب الظن أن اعتزاز ابن حزم أو إيمانه بنفسه لم يتح له أن يصبر كثيراً على العيش فى كنف المعتضد ، وأغلب الظن أيضاً أن منافسة الفقهاء له وتكتلهم ضده ؛ كانت من أسباب التعجيل برحيله عن مملكة المعتضد . ولم يجد ابن حزم مستقراً أهدأ من موطن أسرته الأول فى إقليم لبلة ، حيث قضى بقية حياته فى التعليم والتأليف بعيداً عن المكايد التى عجزت عن ملاحقته فلاحقت كتبه ؛ إذ أحرقها فى إشبيلية علناً المعتمد بن عباد ، الذى كان قد ولى إشبيلية بعد موت أبيه ، والذى وقع تحت تأثير الفقهاء الحانقين على

---

(١) انظر فى تعليل تحول ابن حزم إلى الظاهرية : ابن حزم – صورة أندلسية للدكتور الحاجرى ص ١٢٢ وما بعدها .

(٢) انظر فى ترجمته : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٥٣ وما بعدها .

ابن حزم ، فارتكب هذه الفعلة المنافية لحرية الرأى واحترام كرامة العقل . ولكن تلك الحادثة لم تضعف من عزيمة ابن حزم ، بل قابلها بقوله :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى ... تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلّتْ ركائبى ... وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى
دعونىَ مـــن إحراق رقّ وكاغد ... وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
وإلا فعودوا فى المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون لله من ستر [1]

وظل ابن حزم يواصل رسالته العلمية الكبيرة حتى وافته منيته سنة ٤٥٦هـ بعد أن عاش أكثر من سبعين عاماً ، قضى معظمها فى النشاط العلمى والأدبى .

فقد وضع ابن حزم كثيراً من المؤلفات فى فنون مختلفة ، ولو بقيت كلها لكان لها وحدها أكبر مكان فى المكتبة الأندلسية ؛ ولكن أيدى الزمن عدت على بعض مؤلفات ابن حزم ، واستطاع البعض الآخر أن يفلت من تلك اليد العادية ؛ وهذا البعض الباقى من أخصب وأدسم ما خلف الأندلسيون من تراث [2]

فى الفقه والأصول ، ألف ابن حزم عدة كتب أهمها كتاب « الإبطال » الذى بسط فيه أبو محمد دقائق المذهب الظاهرى . وله أيضاً كتاب « المحلّى » الذى يناقش فيه أصول المذهب الشافعى . ثم له كذلك كتاب « الخصال » الذى ضاع ، والذى يغلب على الظن أنه كان شرحاً لأصول المذهب المالكى ، ثم كتاب « الإيصال » الذى أوجز فيه ابن حزم ما بسطه فى كتاب « الخصال » .

وفى تاريخ الأديان خلف صاحبنا كتابه المشهور « الفصل فى الملل والأهواء

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٤٤ ، وفى معجم الأدباء لياقوت جـ ١٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) روى أبو رافع عن الفضل بن على بن حزم أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة . انظر الترجمة رقم ٨٩١ فى الصلة لابن بشكوال .

والنحل» . وهو كتاب حافل بما فيه من تاريخ نقدى للأديان والفرق والمذاهب على اختلافها [١] ، وقد قال المستشرق الإسبانى « أسين بلاثيوس » Asin Palacios « إننا لا نجد بين أيدينا وثيقة أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب « الفصل » لابن حزم ؛ فهو يمكننا من تتبع سير تيار الثقافة الذى لم يتوقف أبداً خلال العصور الوسطى ، فيما يتصل بتاريخ الأديان والمذاهب ؛ فى ثنايا صفحات هذا الكتاب يتجلى لنا ذلك النسيج الذهبى ، الذى تتألف منه الفلسفة الخالدة ، ذلك النسيج الذى صنعته أوفر عبقريات الإغريق حكمة بأيديها الصبور فى مهارة فائقة . وعلى ضوء صفحاته نرى كيف يزداد النسيج سعة وامتداداً ، وكيف تدخل فى تكوينه على مر العصور أنسجة جديدة ؛ وربما وجدنا أن هذه الأنسجة لا تضاهى نسيج الإغريق روعة وبريقاً ، ولكنها لا تقل عنه متانة وقدرة على البقاء ونراها تجود وتزداد إحكاماً ، بفضل ما أدخله عليها التفكير النصرانى الشرقى ، وما أضافه إليها المسلمون من مادة أوفر . وقد كان المسلمون آخر من انتهت إليهم أطراف هذه العناصر كلها ، ولهذا قد تجمعت بين أيديهم ثمرات هذا التطور الفكرى الغنى ونتائجه ، ومن ثم لم يكن من العسير عليهم أن يسبقوا مفكرى النصارى من أهل الغرب فى تحليلها ووضع منهجها وأساسها اللذين سيقوم عليهما التفكير المنهجى ، « الإسكو لاستى » ، فى القرن الثالث عشر» [٢].

وفى الفلسفة ألف ابن حزم كتباً فى مراتب العلوم والمنطق ، وفى نقد أبى بكر الرازى . وقد ضاعت كلها . ولكن بقى لنا مما يستحق الذكر كتابه المسمى « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس» وهو أشبه بسجل يوميات ، دون فيه ابن حزم ملاحظات منتزعة من تجاربه وخبراته فى الناس والحياة ، وهذه الملاحظات قد صاغها ابن حزم

---

(١) نشر كتاب الفصل فى القاهرة سنة ١٣٢١ هـ . وترجمة المستشرق الإسبانى أسين بلاثيوس) إلى الإسبانية ، ونشره فى سنتى ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ م .

(٢) انظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٢٨ .

فى تركيز ودقة ، فجاءت كأنها مبادئ عامة أو حكم بالغة .

وقد قال المستشرق الإسبانى « أسين بلاثيوس » Asin Palaios عن أسلوب ابن حزم فى هذا الكتاب : « وهذا الأسلوب الوعظى الحكمى الذى اتبعه ابن حزم ، يجعل كتابه هذا شبيهاً بحكم « ديمقراط » و « سنيكا » ، ولا يخلو الكتاب مع ذلك من الفقرات الطوال ، كهذه القطعة الجميلة التى يذم فيها الغرور ، أو تلك التى يصارحنا فيها برذائل ونقائص أخلاقية يراها فى نفسه ، ويقررها فى تواضع يذكرنا باعترافات القديس « أوغسطين » . وفى مواضع أخرى من الكتاب يصف ابن حزم أخلاق البشر فى أسلوب يفيض حيوية ويتجرد عن الميل والهوى . وإن الإنسان ليشعر وهو يقرأ كلام ابن حزم فى هذا المقام كأنه يطالع كتب الأخلاق التى كتبها « ثيوفراست » أو « لا برويير » أو يقرأ « مقالات فى الأخلاق والسياسة لبيكون »[١] .

وفى التاريخ خلف ابن حزم عدة رسائل وكتب . ومن ذلك : كتاب « جمهرة أنساب العرب »[٢] و « نقط العروس »[٣] .

ولابن حزم أيضاً رسالته المشهورة فى « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه »[٤] وهى رسالة كتبها رداً على ما ورد فى خطاب بعث به ابن الريب التميمى القيروانى ، إلى أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم[٥] . وكان هذا العالم القيروانى قد ذكر « تقصير أهل الأندلس فى تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلهم وسير ملوكهم » ، فانبرى أبو

---

(١) انظر : Palencia Literatura, P. 159.
وانظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢١٧ .

(٢) نشره المستشرق الفرنسى برفنسال فى القاهرة سنة ١٩٤٨ .

(٣) نشره الدكتور شوقى ضيف فى القاهرة سنة ١٩٥١ م .

(٤) وردت هذه الرسالة فى نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٥) هو ابن عم أبى محمد بن حزم (اقرأ ترجمته فى الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١١١ وما بعدها) .

محمد بن حزم يذكر علماء الأندلس ويعدد أفضالهم ومؤلفاتهم . فالرسالة تعتبر ثبتاً لما ألف الأندلسيون فى مختلف العلوم ، ولن نبغ منهم فى شتى الفنون حتى أيام ابن حزم .

ولأبى محمد كذلك فى التاريخ « الإمامة والخلافة » و« فهرست » ما كان له من شيوخ . ويبدو أنهما من كتبه الضائعة .

هذا ، ولم يكن ابن حزم عالماً مبرزاً فقط ، وإنما كان أديباً شاعراً وناثراً أيضاً . وقد مضت مؤلفات ابن حزم فى الميدان العلمى . أما مؤلفاته الأدبية فأهمها جميعاً ، كتابه « طوق الحمامة » ، وسوف نفرد له كلمة حين نتحدث عن الأدب فى هذه الفترة التى نسوق عنها الحديث .

ابن حيان :

هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان[1] . يتصل نسبه بجد كان مولى لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس . وكان أبوه من كتاب المنصور ابن أبى عامر ، ومن المعروفين بالعلم والأدب فى فترة الحجابة .

وقد ولد حيان بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ ، ونشأ فى بيت علم وأدب ، ودرس على أبيه خلف بن حسين ، وعلى غيره من علماء العصر ، فأخذ النحو عن أبى عمر بن

---

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره وآثاره فى : الصلة لابن بشكوال رقم ٣٤٥ . وفى : جذوة المقتبس للحميدى رقم ٣٩٧ . وفى : بغية الملتمس للضبى رقم ٦٨٩ . وفى : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ٨٤ وما بعدها . وفى : المغرب لابن سعيد جـ ١ ص ١١٧ . وفى : الوافى بالوفيات للصفدى جـ ٤ م ١ ص ١٦١ .
وانظر : Palencia : Literatura, P. 151 ff.
وتاريخ الفكر الأندلسى ص ٣٠٨ وما بعدها .

أبى الحباب[١]، وتلقى الأدب عن أبى العلاء صاعد البغدادى[٢] وسمع الحديث من أبى جعفر عمر بن نابل[٣] . وما زال يتلقى العلم على هؤلاء وغيرهم ، حتى نضجت ثقافته . ويبدو أنه كان يؤثر الأدب والتاريخ على غيرهما من فروع الثقافة .

وقد تقلد ابن حيان بعض المناصب الإدارية والفنية ، فكان صاحب الشرطة ، أو صاحب المدينة فى قرطبة حيناً ، كما عمل فى ديوان الإنشاء لبعض رؤسائها حيناً آخر . ولكن نشاطه الأكبر كان منصرفاً إلى كتابة التاريخ .

وقد ألف ابن حيان عدداً من الكتب التاريخية ، ضاع أكثرها وبقى أقلها . ومن الكتب التى صحت نسبتها إليه كتاب : « المآثر العامرية» وكتاب « تاريخ فقهاء قرطبة» ، وكتاب « المقتبس» وكتاب « المتين» . ولم يبق من هذه الكتب جميعاً إلا أجزاء من « المقتبس» ، وفقرات من « المتين» .

و « المقتبس» قد كان يقع فى عشرة أجزاء ، ويتناول تاريخ الأندلس من أيام فتحها إلى زمن المؤلف . وكل الذى بقى بين أيدى الباحثين من هذا الكتاب ثلاثة أجزاء : جزء عن فترة الأمير عبد الرحمن الأوسط[٤] ، وجزء ثان عن فترة الأمير عبد الله بن محمد[٥] ، ثم جزء ثالث عن فترة الحكم المستنصر[٦].

أما « المتين» فقد كان يقع فى ستين مجلداً ، ولذا سمى « بالتاريخ الكبير» . وكل

---

(١) انظر ترجمته فى الصلة لابن بشكوال رقم ٣٥ .

(٢) انظر ترجمته وبعض أخباره فى الفقرة الخاصة « بالثقافة فى فترة الحجابة » من هذا الكتاب .

(٣) انظر ترجمته فى : الصلة رقم ٨٤٩ .

(٤) كان هذا الجزء عند المستشرق الفرنسى الأستاذ ليڤى بروفنسال ، وكان يعده للنشر قبل وفاته .

(٥) نشر هذا الجزء سنة ١٩٢٨ المستشرق الإسبانى القس (ملتشور أنطونيا) الذى قتل أيام الحرب الأهلية فى إسبانيا .

(٦) هذا الجزء عند المستشرق الإسبانى الأستاذ جارثيا جوميث ، وهو يعده للنشر .

ما حفظ من هذا التاريخ الكبير فقرات رواها بعض المؤرخين الذين أتوا بعد ابن حيان وأفادوا من كتبه ، كابن بسام وابن الخطيب والمقرى .

والذى يمكن استنباطه مما بقى من تراث ابن حيان ، أنه كان مؤرخاً واسع المعرفة دقيق الرواية نافذ البصيرة ، كما كان يميل إلى التحليل والتعليل والنقد فيما يعرض من أخبار ؛ فقد كان له رأيه غالباً فى الأحداث والأشخاص ، وكان هذا الرأى على كثير من الانفعال والحدة ، بل على كثير من القسوة فى كثير من الأحايين . وإذا ذكرنا الظروف القاسية التى عاش فيها ابن حيان أيام الفتنة عرفنا سبب انفعاله وحدته وقسوته .

ومن أهم ما يلاحظ على كتابة ابن حيان التاريخية ، أسلوبه الأدبى الممتاز الذى يعرض فيه التاريخ ، وهو أسلوب لا يصطنع المحسنات ولا يفتعل القعقعة الكاذبة ، كما لا يعمد إلى السرد والقص دون رعاية للإطار ، وإنما يعرض التاريخ فى قالب أدبى أخاذ . فيه قوة نسج وإشراق عبارة وشدة تأثير . وليس من شك فى أن نشأة ابن حيان الأدبية قد سيرته فى هذا الاتجاه .

ولعل من أصدق ما قيل فى طريقة ابن حيان وأسلوبه، قول المؤرخ الهولندى « دوزى» Dczy : « إنه يسوق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء ، كما سيفعل من بعده مؤرخون نقادون كابن سعيد وابن خلدون . ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصع . لا يهبط إلى الركاكة التى تثير السخط ، ولا يقع كذلك فى التصنع والإسراف فى قعاقع الألفاظ . وهو برغم التزامه هذه السهولة ، لا يهمل جانب الجمال فى أسلوبه ، ويبعث فى كلامه دائماً حماساً وغنى وطابعاً غالباً من الجد . . . ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد بين مؤرخى العرب إلا القليلين الذين نستطيع أن نقارنهم به ،

ولن نجد بينهم من نقدمهم عليه »[١] .

هذا وقد أدرك ابن حيان جزءاً من عصر ملوك الطوائف ، وكانوا يعرفون قدره ويقدرون مكانته. ولأدل على ذلك مما رواه ابن سعيد فى هذه القصة حيث قال عنه: « وحلف عبد الملك بن جهور أن يسفك دمه ، فأحضره أبوه أبو الوليد ، وقال : والله لئن طرأ على ابن حيان أمر لا آخذن أحداً فيه سواك ، أتريد أن يضرب بنا المثل فى سائر البلدان ، بأننا قتلنا شيخ الأدب والمؤرخين ببلدان تحت كنفنا ، مع أن ملوك البلاد القاصية تداريه وتهاديه ؟ ! »[٢] .

ولم يكن تأليف التاريخ كل نشاط ابن حيان الفنى ؛ فقد أثرت عنه رسائل وفصول تشهد بعلو كعبه فى النثر الخالص[٣] . كذلك روى أن له شعراً ، ولكن هذا الشعر لا يشبه نثره فى القوة بل لا يدانيه فى المنزلة[٤] . ومن هنا لم يعد ابن حيان من الشعراء ، وإنما عد من كبار المؤرخين والناثرين . وقد ختمت حياته سنة ٤٦٩ هـ .

٤ — الأدب بين الهروب والمراجعة :

تأثر الأدب بأحداث الفتنة تأثراً واضحاً ، وكان التأثر شراً على بعض الأنواع الأدبية وخيراً على بعضها الآخر . ومن مظاهر الشر انتشار أدب التلهى والنفاق والتفاهة ، أو أدب الهروب بتعبير أشمل . ومن مظاهر الخير ظهور أدب التأمل والتذكر والنقد ، أو أدب

---

(١) انظر Palencia Literatura. P. 158 ff

وانظر تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة حسين مؤنس للمصدر السابق) ص ٢١١ .

(٢) انظر : المغرب لابن سعيد جـ ١ ص ١١٧ .

(٣) اقرأ كثيراً من هذه الرسائل والفصول فى : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ٧ وما بعدها .

(٤) انظر : المغرب جـ ١ ص ١١٧ .

المراجعة بتعبير أعم . وقد كان الشعر مجال النوع الأول ، كما كان النثر مجال النوع الثاني. ومن هنا خطا النثر خطوات واسعة حتى سبق الشعر ، إذ ظهرت أنواع جادة جديدة ، أتاح لها انطواء بعض الأدباء وعكوفهم جواً ملائماً فيه تأمل وفيه مراجعة ، مما يساعد على التخيل والقص والتحليل والنقد ، وهى السمات التى حفلت بها أهم الأعمال النثرية فى تلك الفترة .

وهذه كلمة عن كل من نوعى الأدب فى فترة الفتنة ، توضح هذا الإجمال :

أولا — الشعر :

لم يقف الشعر الأندلسى عند النقطة التى وصل إليها من قبل فحسب ، بل تخلف بعض التخلف ، فقل نتاجه ، وضاقت أغراضه ، واختلطت اتجاهاته . ولولا قلة من الشعراء الموهوبين الذين تغلبت طبيعتهم الفنية على ظروف الفتنة القاسية ، لما وجدنا لهذه الفترة شعراً ذا قيمة كبيرة ؛ لأن أحداث الفتنة حصرت الشعر فى دائرة ضيقة ، وصرفت الشعراء عن الفن الجاد . فهو حيناً حديث عن اللهو والشراب يدفع إليه الهروب وإغراق الهم ، كقول عبادة بن ماء السماء [1] :

فهل ترى أحسن من أكؤس ... يقبل الثغر عليها اليدا
يقول للساق اغتبق لى بها ... وخذ لجينا وأعد عسجدا
أغرق فيها الهم لكن طفا ... حبابها من فوقها مزبدا
كأنما شيبها شارب ... أمسكها فى كفه سرمدا [2]

وهو حيناً آخر مدح كاذب وثناء متملق ، يحمل عليه طلب الأمن والاحتماء فى

---

(١) انظر ترجمته وبعض شعره فى : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ وما بعدها .

(٢) وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٥ .

ظل الحاكم ، ومن ذلك قول ابن الحنّاط الكفيف[١] فى القاسم بن حمود :

لك الخير « خيرانٌ »[٢] قضى لسبيله ... وأصبح ملك الله فى ابن رسوله
وفُرق جمع الكفر واجتمع الورى ... على ابن حبيب الله بعد خليله
وقام لواء الجمع فوق ممنَّع ... من النصر جبريل أمام رعيله
وأشرقت الدنيا بنور خليفة ... به لاح بدر الحق بعد أفوله[٣]

وقوله بعد ذلك فى يحيى بن حمود ، ابن أخى الأول والثائر عليه :

أمَّتْ أمير المؤمنين مواحلا ... فسقى صداها غيثه الشؤبوبُ
المعتلى بالله والملك الذى ... تاج الفخار برأسه معصوب
إن كان عدوا حب آل محمد ... ذنبًا فإنى لست منه أتوب[٤]

وهو مرة بكاء تسببه المآسى الكثيرة والمحن العديدة ، كقول بعضهم فى بكاء قرطبة :

ابكِ على قرطبةَ الزينِ ... فقد دهتها نظرة العين
أنظرها الدهر بأسلافه[٥] ... ثم تقاضى جملة الدين
كانت على الغاية من حسنها ... وعيشها المستعذب اللين[٦]
فانعكس الأمر فما إن ترى ... بها سروراً بين اثنين
فاغد ووادعها وسر سالمًا ... إن كنت أزمعت على البين[٧]

---

(١) اقرأ ما كتبه عنه ابن بسام فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٨٣ وما بعدها .

(٢) هو خيران العامرى الذى كان أميراً على إقليم ألمرية ، وكان قد انقلب على الحموديين وناصر أعداءهم ولكنه لم يصب نجاحاً .

(٣) وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٩٦ .

(٤) وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٩٣ .

(٥) الأسلاف : جمع سلف ، وهو القرض .

(٦) اللين بسكون الياء ، كاللين بكسرها مع التشديد : الناعم .

(٧) وردت هذه الأبيات فى : البيان المغرب لابن عذارى جـ ٣ ص ١١٠ .

وهو مرة أخرى وصف لأشياء تافهة ، يدفع إليه التلهى والتعابث ، كقول أبى عامر ابن شهيد فى برغوث :

ومنفـــر للنـــوم مسكنه إذا ... نام المملك بين أثنـــاء الثيـــابْ
يسرى إلى الأجساد يهتك عدوه ... عن كل جسم صيغ بالنعمى حجاب
ويعض أرداف الحسان ومـــا له ... كف ولكن فوه من أعدى الحراب
متحكم فى كل جسم ناعم ... متدلل ما بين ألحاظ الكعـــاب
فإذا هممت بزجـــره ولى ولا ... يثنيه عما قد تعوده طـــلاب
وترى مواضع عضة مخضوبة ... بدم القلوب وما تعاوره خضاب
قَرْم[1] من الليل البهيم مكور ... يمشى البراز وما تواريه ثيـــاب
عظمت رزيتـــه ولكن قدره ... أخزى وأهون من ذباب فى تراب[2]

على أنه قد يكون غزلا شاذاً بدافع المجون ، أو عذرياً بعامل الانطواء ، أو فروسيًّا متهالكاً بسبب كثرة الفرسان والمحاربين فى تلك الأحايين . ومن هذا الأخير قول الخليفة الأموى سليمان المستعين :

عجبًا يهاب الليثُ حد سنانى ... وأهاب لحظ فواتـــر الأجفـــان
فأقارع الأهـــوال لا متهيبـــا ... منها سوى الإعراض والهجران
وتملكتْ نفسى ثلاث كالدمى ... زُهـــر الوجـــوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظرى ... من فوق أغصـــان على كثبان
هذى الهلال . وتلك بنت المشترى ... حسنًا وهذى أخت غصن البـــان
حاكمتُ فيهن السلو إلى الصِّبـــا ... فقضى بسلطان على سلطان

(١) القرم : البعير المكرم الذى لا يحمل عليه ولا يذلل .
(٢) وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

فأبحن من قلبي الحمى وتركنني ... في عـز ملكي كالأسـير العاني
لا تعذلوا ملكًا تذلل في الهوى ... ذلَّ الهـوى عـز وملك ثان
ماضر أني عبـدهن صـبابة ... وبنو الزمان وهن من عبـداني
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفـا بهن فلست من مروان[1]

ومن أهم ما يلاحظ على الشعر في تلك الفترة بالإضافة إلى ما تقدم ، كثرة مزجه بالنثر ؛ فكثير من شعر هذه الفترة لم يقل على شكل قصائد مستقلة ، وإنما قيل كأجزاء من رقاع أو رسائل أو فصول تحرر في غرض ما ، ثم تشتمل على قطعة أو أكثر من الشعر ، تزين بها الرقعة ، وتجمل الرسالة ، وينوع الحديث في الفصل . ومما ساعد على ذلك أن كثيراً من الأدباء كانوا يجمعون بين صفتي الناثر والشاعر ، فكانوا يجعلون كثيراً من نتاجهم جامعاً لصفتيهم ، ومشتملا على فنيهم[2] .

الشعراء :

وقد كان شعراء تلك الفترة أقل بطبيعة الحال من شعراء الفترات السابقات ؛ كذلك كان بعضهم ممن سبق به العمر في فترة الحجابة ، أو امتد به الأجل فأدرك عصر الطوائف . وألمع شعراء تلك الفتنة هم : أبو عامر بن شهيد ، وأبو محمد ابن حزم ، وأبو مروان الطبني ، وأبو عبد الله بن الحناط . وسوف نكتفي بالحديث عن أشعر هؤلاء جميعاً وهو :

أبو عامر بن شُهَيْد :

اسمه أحمد ، وأبو عامر كنيته[3] ، واسم أبيه عبد الملك بن شهيد ، وأبو مروان

---

(١) وردت هذه الأبيات في الذخيرة ق ١ م ٤ ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) انظر نماذج كثيرة في هذا المصدر السابق .

(٣) انظر ترجمته وأخباره وأشعاره في : جذوة المقتبس للحميدي ترجمة رقم ٢٣٢ ، وفي : =

كنيته ، وهذا الأب هو ثانى اثنين من هذه الأسرة سموا بـ « عبد الملك » ؛ والأول هو الجد الأعلى ، الذى كان وزيراً للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط . وكذلك صاحبنا أبو عامر ، قد حمل نفس الاسم الذى حمله الجد الأدنى ، وهو أحمد بن عبد الملك ابن شهيد ، الذى كان وزيراً للخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر . ومن هنا حصل لبس بين الصغير والكبير ، والحفيد والجد من بنى شهيد ، عند بعض الباحثين[1] .

وأبو عامر سليل أسرة عرفت بالوزارة والرياسة كما رأينا . وقد كان أبوه عاملا للمنصور ابن أبى عامر بشرق الأندلس فى إقليم بلنسية ، وكان ذا مكانة كبيرة عند الحاجب ، تدل عليها قصة عودته إلى قرطبة بثروة عظيمة ، وعرضه إياها على المنصور ، وإقرار المنصور له على ثروته مع منحه بعض المنح زيادة فى تكريمه[2] .

وقد ولد أحمد بن شهيد فى بيت أبيه بقرطبة سنة ٣٨٢ هـ أيام المنصور بن أبى عامر . ونشأ فى أحضان النعمة ، وتربى على مهاد الجاه ؛ فقد كان البيت الذى ينتمى إليه بيت سراء وثراء ونفوذ وسلطان . وكانت صلة هذا البيت ببيت الحاجب — ولى الأمر الفعلى — قوية الوشائج ، بحيث سمحت للصغير أحمد أن يلهو بين يدى المنصور ، وأن يُحمل على أكتاف ابنه عبد الرحمن ، وأن يجلس على سرير زوجة الحاجب ، وينال الكثير من التدليل والعطف والهدايا[3] . وهكذا لعب أبو عامر بالمال منذ صغره ، فنشأ وكفاه لا تقدران على القبض ، وإنما تألفان البسط والعطاء والتبديد .

= بغية الملتمس للضبى ترجمة رقم ٤٤٠ ، وفى : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٦١ وما بعدها ، وفى مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ١٦ ، وفى : المطرب لابن دحية ص ١٥٨ وفى : المغرب لابن سعيد جـ ١ ص ٨٧ وما بعدها ، ونفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ١٩١ — ١٩٢ ، وفى يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٢ ص ٣٠ وما بعدها ، وفى : معجم الأدباء لياقوت جـ ٣ ص ٢٢٠ . وفى وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٩٥ .

(١) نسبه كاملا هو : أبو عامر أحمد بن أبى مروان عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك ابن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد . أشجعى النسب من ولد الوضاح بن رزاح الذى كان مع الضحاك بن قيس الفهرى يوم مرج راهط (انظر المطرب ووفيات الأعيان) .

(٢) انظر هذه القصة فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٣) انظر أخبار ذلك فى : الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

وكان للتدليل الكثير والترف البالغ والنعمة الموفورة أثر كبير فى نشأة أبى عامر ، فهو لم يؤخذ بجد إلى التعليم ، ولم يحمل فى صرامة على الدرس ، ومن هنا لم يقبل كثيراً على ما كان يقبل عليه معاصروه من حديث وتفسير وفقه ونحو ، وغير ذلك من العلوم الدينية واللغوية ، وإنما أقبل على ما يلائم ترفه وانطلاقه ، ويناسب طبعه ومواهبه ؛ أقبل على الأدب ، يتزود من قديمه وحديثه ، ومن شعره ونثره ، ويطيل النظر فيما خلف الجاهليون والإسلاميون والمشارقة والمغاربة من شعر ونثر ، وحفظ من ذلك كله الكثير ، واختزن من المعانى والأفكار والصور والأساليب ما حرك ملكته ، وأنطق لسانه ، وأجرى قلمه منذ حداثته .

فبدأ يقول الشعر فى مرحلة باكرة ، ويراسل به المتقدمين عليه سناً وفناً[1] ، وذلك لمنزلة والده ومكانة أسرته . وسرعان ما اشتهر أمره كأديب ، لا يقتصر على قول الشعر وإنما يزاول كتابة النثر ويتعرض لبعض قضايا النقد أيضاً .

ولم تكن الحاجة تدفع ابن شهيد إلى عمل يكسب منه قوته ، فقل توليه للمناصب[2] . وكثر تفرغه للهو والمجون وقرض الشعر وتدبيج النثر . ولم تستطع الفتنة الضاربة على الأندلس وعلى قرطبة بنوع خاص ، أن تعقل لسانه أو تحطم قلمه ، وإن استطاعت أن توجهه وجهة تناسبها وتناسب استعداد ابن شهيد أيضاً ؛ فكان أدبه مقسما بين خمريات ولهو ومجون ، ومجاملة وترض للحاكمين ، وهجاء وتجريح للمعادين ، ثم بين مراجعة وتأمل ، وتخيل وقص ، وتحليل ونقد[3] .

---

(١) انظر : مراسلته للجزيرى فى : الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٨٤ .

(٢) ذكر فى بعض رسائله أنه عقد له على الشرطة وهو صغير فى أيام المظفر ، ولعلها كانت وظيفة شرفية ، لأنه كان ابن ثمان كما ذكر (انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٦٤) .

(٣) تتمثل الأغراض الأولى فى شعره . وتبدو الأغراض الأخرى فى نثره ، وخاصة « رسالة التوابع والزوابع » .

وكان ابن شهيد يخلص الإخلاص كله للعامريين ، وقد تمثل هذا الإخلاص فى مراسلاته الطويلة وأمداحه السخية للمؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور . الذى كان يقيم بشرق الأندلس[١] .

كما تمثل فى صحبته وصداقته لأبى عامر بن المظفر بن المنصور ، الذى كان يقيم بقرطبة ، حتى اضطر إلى الخروج منها أيام هشام المعتد[٢] .

كذلك كان ابن شهيد على ولاء للأمويين ، غير أنه لم يكن ذا حظ موفور مع من تولوا الأمر منهم فى فترة الفتنة . كذلك كان سيئ الحظ أيضاً مع الحموديين ، حتى لنراه يسجن مدة فى أيامهم ويعانى كثيراً من الضيق . ولم تقم صلة قوية بين ابن شهيد وحكام هذه الفترة برغم محاولاته ذلك فيما يبدو ؛ ولا يستثنى من هذا كله إلا إثنان من الحكام هما : عبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظهر ، ويحيى بن حمود الملقب بالمعتلى[٣] . فقد استوزره الأول ضمن من استوزر من الأدباء والمفكرين ، غير أن خلافته لم تدم إلا أسابيع ثم قوضت ، وقوضت معها آمال ابن شهيد . أما يحيى بن حمود فقد قرب الشاعر وشجعه على الاطمئنان إليه ، بل جذبه إلى الهجرة من قرطبة إلى مالقة[٤] ، مقر هذا الحمودى بعد نفض يده من قرطبة ومتاعبها . ولكن إقامة ابن شهيد فى مالقة لم تطل ؛ لأن حبه لقرطبة كان فوق كل شىء ؛ فهى مكان هواه ، ووكر ملذاته ، ومركز مساجلاته ومناظراته . وأوضح دليل على قصر إقامة ابن شهيد بعيداً عن قرطبة ، أن كل ما أثر عنه من أدب صادر عنها ومحرر فيها .

---

(١) اقرأ بعض تلك الرسائل فى : الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٦٣ وما بعدها .

(٢) اقرأ بعض أخبار ابن شهيد معه فى : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٣) ذكر ابن سعيد فى المغرب أن هشاما الملقب بالمعتد قد اصطفى ابن شهيد ، وأن ابن شهيد بكاه لما خلع ، وذكر بيتين لابن شهيد فى هشام (ص ٨٥ ج ١ مغرب) .

(٤) انظر : الذخيرة ق ١ ص ٢٧٥ .

ولم يكن ابن شهيد يعانى من كراهية أكثر الحكام فحسب ، وإنما كان يعانى من كراهية كثير من رجال العلم والأدب ، وخاصة من عرفوا منهم بالمحافظة . ولعل من أهم أسباب كراهية هؤلاء لابن شهيد ، تحرره البالغ ، وانطلاقه الزائد ، ومجونه المعربد ، ولسانه اللاذع ، وجرأته الجارحة .

على أن ابن شهيد إن فقد عطف طائفة فقد كسب حب أخرى ، فقد كان له نخبة من الخلصاء ربما يرجحون الأعداء علماً وأدباً ومنزلة ، وفى مقدمة هؤلاء : أبو محمد ابن حزم وابن عمه أبو المغير بن حزم .

وقد ظل ابن شهيد فى قرطبة بعد رحلته القصيرة إلى مالقة ، متفرغاً للحياة الفنية الخالصة ، بما يخالطها من تحرر وانطلاق حتى مرض بالفالج ، وظل يعانى منه حيناً ، ثم ختمت حياته سنة ٤٢٦ هـ ففجع الناس بموته ، حتى قيل : « ولم يُشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والعويل . وأنشد على قبره من المراثى جملة موفورة لطوائف كثيرة[1] » .

شعره :

أما شعر ابن شهيد فلم يؤثر عنه مجموعاً فى ديوان يضم شتاته ، وإنما خلفه قصائد ومقطوعات وأبياتاً مفرقة ، فى رسالة « التوابع والزوابع » ، وفيما نقل أصحاب كتب الأدب والتراجم ممن تناولوه بالحديث ، كابن بسام وابن خاقان والثعالبى .

والذى يدل عليه ما أثر عن ابن شهيد من شعر ، أن الرجل كان أصيل الملكة غزير النتاج مرن الشاعرية ؛ فهو قد قال الشعر فى أكثر الأغراض وخاصة الطبيعة والخمر والغزل ، وهو لم يلزم اتجاهاً معيناً ، وإنما سار فى كل الاتجاهات حسب الأغراض

---

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨٨ .

والملابسات والمواقف ، وإن كان أميل إلى الاتجاهين المحدث والمحافظ الجديد . وليس معنى ذلك أنه كان حائل اللون عديم السمات ؛ فقد كان شعر ابن شهيد ذا ملامح مميزة وقسمات دالة ، أهمها : القدرة الفائقة على التصوير وربط الطبيعة بالنفس الإنسانية ، وتناول القديم بطريقة جديدة ، تلائم العصر والبيئة ومظاهر الحضارة ؛ ثم الأخذ بأسلوب القص والحوار ، والإكثار من الدعابة والفكاهة ، وإجراء الشعر على ألسنة بعض الحيوانات . كل ذلك مع إيثار لسهولة اللفظ ووضوح المعنى وبساطة التركيب واتضاح الموسيقى .

فمن شواهد قدرته الفائقة على التصوير ، قوله فى سهولة لفظ وبساطة معنى وخفة روح :

سَهِر الحيا برياضها ... فأساها والنَّور نائمْ
حتى غدت زهراتها ... كالغيد باللجج العوائم
من ثيبات لم تُبَل ... كشف الخدود ولا المعاصم
وصغار أبكار شكت ... خجلا فعاذت بالكمائم
وردٌ كما خجلت خدو ... د العين من لحظات هائم
وشقيق نعمان شكت ... صفحاته من لطم لاطم
وغصون أشجار حكت ... رقص المآتم للمآتم[1]
بكر الحسان يردنها ... من كل واضحة الملاغم[2]
وضحكن عجبًا فالتقت ... فيها المباسم بالمباسم
ضحكتْ وأومض بارق ... فظللت للبرقين شائم
وتشرفت فتطامنت ... أجياد أظبيها الحوائم

(١) المآتم : جمع مأتم ، وهو مجتمع النساء لفرح أو لحزن .
(٢) الملاغم : ما حول الفم .

ورنتْ فبادر نرجس يشكو عماه إلى حمائم
طاردتهن بفتية حُرْد [١] على حرب المسالم
وكأنني فيهم لقيط قاد من أحياء دارم [٢]
وتكاوستْ [٣] فيها الأبا رق وهى فاهقة الحلاقم
وكأنها أظب رعفن فنْرن دامية الخياشم
وجرى بها فلك الصبا باللهو والقضب اللوائم
وكأننا فيها العفا رت ، والكؤوس من الرواجم
وعلا بنا سكر أبى إلا الإنابة للمحارم
نرمى قلانسنا له ونجر من عذَب العمائم
وترنمت فيها القيا ن لنا ورجّعت البواغم
قمنا نصفق بالأكف لها ونرقص بالجماجم [٤]

ومن شواهد براعته الفنية فى الربط بين الطبيعة والنفس الإنسانية ، قوله من قطعة رائعة التصوير أيضاً ، حيث يبدأ بوصف الطبيعة فيقول :

تردد فيها البرق حتى حسبته يشير إلى نجم الرُّبا بالأنامل
ربًا نسجت أيدى الغمام للبسها غلائل صفراً فوق بيض غلائل
سهرتُ بها أرعى النجوم وأنجمًا طوالع للراعين غير أوافل
وقد فغرت فاها بها كل زهرة إلى كل ضرع للغمامة حافل

---

(١) حرد : سراع .

(٢) لقيط هو لقيط بن زرارة التميمى ، بطل يوم شعب جبلة . ودارم : أبو حى من تميم .

(٣) تكاوست : تكاثرت .

(٤) هذه الأبيات من قصيدة طويلة تضمنّها رسالة لابن شهيد بعث بها إلى المؤتمن العامرى وهى واردة فى : الذخيرة ق ١ ص ١٦٧ وما بعدها .

ومرت جيوش المزن رهواً كأنهـــا ... عساكر زنج مذهبات المناصـــل
وحلقت الخضراء فى غر شهبها ... كلجة بحر كللت باليعالل[1]
تخال بها زهر الكواكب نرجسًا ... على شـــط واد للمجرة ســـائل
وتلمح من جوزائها فى غروبها ... تساقط عرش واهن الدعم مائل
وتحسب صقراً واقعًا دبرانهـــا ... بعش الثريا فوق حمر الحواصل
وبدرَ الدجى فيها غديراً وحوله ... نجوم كطلعات الحمام النواهل

ثم ينتقل إلى الحديث عن نفسه وهمومها ، رابطاً بين ذلك وبين بعض مشاهد الطبيعة فيقول :

كأن الدجى همى ودمعى نجومه ... تحدر إشفاقًا لدهر الأراذل
هوت أنجم العلياء إلا أقلهـــا ... وغبن بما يحظى به كل عاقل
وأصبحت فى خلق إذا ما لمحتهم ... تبينت أن الجهل إحدى الفضائل
وما طاب فى هذى البرية آخر ... إذا هو لم ينجد بطيب الأوائل
أرى حُمُراً فوق الصواهل جمة ... فأبكى بعينى ذل تلك الصواهل
ورُبَّت كُتَّاب إذا قيل : زوِّروا ... بكت من تأنيهم صدور الرسائل
وحامل فقـــه لم ير اللهَ قلبُه ... يظن بأن الدين حفظ المســـائل
وحامل رمح راح فوق مضائه ... به كاعبًا فى الحى ذات مغازل
حبُوا بالمنى دونى وغودرت دونهم ... أرود الأمانى فى رياض الأباطل[2]

ومن أمثلة تناوله القديم بطريقة جديدة ، قوله من أبيات فيها قص وحوار ، وفيها صورة منتزعة من الطبيعة الأندلسية ذات الشتاء القارس البرد ، الذى يكسو الهضاب

(١) اليعالل : جمع يعلول بفتح الياء ، وهو الحباب ونفاخات الماء .
(٢) وردت هذه الأبيات ضمن رسالة التوابع والزوابع . وهى فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

بالثلوج ، وفيها بعد ذلك صور مؤلفة من البيئة الأندلسية المتحضرة المترفة :

ولما رأيت الليل عسكر قُـرُّهُ ... وهبَّت له ريحانِ تلتطمـانِ
وعمم صُلْع الهُضْب من قطر ثلجه ... يدان من الصنَّبر تبتـدران
رفعت لسارى الليل نارين فارتأى ... شعاعين تحت النجم يلتقيـان
فأقبل مقرور الحشا لم تكن له ... بدفع صروف النائبات يـدان
فقلت : إلى ذات الدخان ؟فقال لى : ... وهل عُرفت نار بغير دخان ؟
فملت به أجـرّه نحو جمـرة ... لها بارق للضيف غـير يمـان
إذا ما حسا ألقمتُه كل فلذة ... لفرخة طير أو لسخلة[1] ضان
فما زال فى أكل وشرب مدارك ... إلى أن تشهى الترك شهوة وان
فألحفتـه فامتـد فوق مهاده ... وخـداه بالصهبـاء تتقـدان
وما انفك معشوق الثـواء نمدة ... ببشر وتـرحيب وبسط لسـان
تغنيـه أطيار القيان إذا انتشى ... بصنج وكيثار وعود كِران[2]
ويسمو دخان المندل الرطب فوقه ... كما احتملت ريح متون عُثان[3]
إلى أن تشهى البين من ذات نفسه ... وحن إلى الأهلـين حنـة حان
فأتبعته ما سـد خلة حاله ... وأتبعنى ذكراً بكل مكان[4]

فهذه الأبيات تحكى قصة طارق بالليل هدته نار القِرى ، وهو موضوع عرف منذ العصر الجاهلى ، لكن ابن شهيد يتناوله بطريقة جديدة ، تنقله من شبه جزيرة العرب إلى شبه جزيرة الأندلس ، ومن مسرح البادية إلى جو الحضارة .

---

(١) السخلة : ولد الشاة .
(٢) الكران : العود أو الصنج .
(٣) العثان : الدخان .
(٤) وردت هذه الأبيات فى : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٦٦ – ٢٦٨ .

ومن أمثلة إجرائه الشعر على ألسنة بعض الحيوانات ، قوله من رسالة « التوابع والزوابع فى شعر فكاهى على لسان بغل يتغزل :

على كل صب من هواه دليلُ ... سقام على حر الجوى ونحول
وما زال هذا الحب داء مبرحًا ... إذا ما اعترى بغلا فليس يزول
بنفسى التى أما ملاحظ طرفها ... فسحر وأما خدها فأسيل
تعبتُ بما حُملت من ثقل حبها ... وإنى لبغل للثقال حمول
وما نلت منها نائلا غير أننى ... إذا هى بالت بلت حيث تبول[1]

وقوله أيضاً على لسان حمار فى نفس الموضوع الذى طرقه البغل :

دُهيتُ بهذا الحب منذ هويتُ[2] ... وراثت إرادتى فلست أريث[3]
كلفت بإلفى منذ عشرين حجة ... يجول هواها فى الحشا ويعيث
ومالى من برح الصبابة مخلص ... ولا لى من فيض السقام مغيث
وغيَّر منها قلبها لى نميمة ... نماها أحَمُّ الخصيتين خبيث
وما نلت منها نائلا غير أننى ... إذا هى راثت رثت حيث تروث[4]

هذا ولم يكن الشعر كل نشاط ابن شهيد الأدبى ؛ فقد كان كما ذكرنا ناثراً وناقداً أيضاً . وقد ذكر مترجموه أنه ألف كتباً منها « كشف الدرك وإيضاح الشك» و « حانوت عطار» و « التوابع والزوابع » ، وقد ضاع الأولان ، وبقيت فصول طيبة من « التوابع والزوابع » ، إلى فصول ورسائل عديدة حفظتها ذخيرة ابن بسام[5] .

وسوف نتحدث عن نثر ابن شهيد ونقده حين نتحدث عن نثر هذه الفترة .

---

(١) انظر هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٥٣ .
(٢) ذكر ابن شهيد أن هويث : هى هويت بلغة الحمير . وهذا من فكاهاته .
(٣) راثت : ابطأت . وأريت : مضارع رات بهذا المعنى . والفعل يأتى العين من باب باع .
(٤) راثت هنا : طرحت الروث . والفعل راوى وبابه قال .
(٥) القسم الأول المجلد الأول .

ثانياً – النثر :

كان حظ النثر فى تلك الفترة أعظم من حظ الشعر ؛ فقد أفاد مما فرضته ظروف الفتنة على بعض الأدباء من عزلة وانطواء ومرارة ، حملتهم على التخيل والتأمل والمراجعة ، فكان الابتكار والقص والنقد . ومن هنا حظى النثر فى تلك الفترة بنتاج جديد خصب ، أغنى نوعيه الخالص والتأليفى . وتلك كلمة عن كل من النوعين :

(أ) النثر الخالص :

لم يعد هذا النوع مقصوراً على تلك الفروع البسيطة الساذجة التى تتمثل فى الرسالة والخطبة والوصية وما إلى ذلك ؛ وإنما اتسع فشمل القصة . وكان وصوله إلى هذا الفرع الأدبى أشبه بالطفرة ؛ فقد وثب إلى القصة الأخروية ، التى لا تتناول أحداثاً وأبطالا من عالمنا الذى نعيش فيه ، وإنما تتناول أحداثاً وأبطالا من عالم آخر غير عالمنا هذا . والعمل الأدبى الذى كان ولا يزال مفخرة الأدب الأندلسى فى هذا الفرع القصصى ، هو عمل أبى عامر ابن شهيد الذى سماه :

رسالة التوابع والزوابع [1] :

وهى قصة خيالية يحكى فيها ابن شهيد رحلة فى عالم الجن ، قد اتصل خلالها بشياطين الشعراء ، وناقشهم وأنشدهم وأنشدوه ، وعرض أثناء ذلك بعض آرائه فى الأدب واللغة ، وكثيراً من نماذج شعره ونثره ، كما نقد خصومه ، ودافع عن فنه ، وانتزع من ملهمى

---

(١) لم يعثر على هذه الرسالة كاملة فى كتاب ، وإنما حفظت ذخيرة ابن بسام أكثرها فى المجلد الأول من القسم الأول ، ص ٢١٠ وما بعدها . وقد نشر بطرس البستانى ما حفظته ذخيرة ابن بسام من « التوابع والزوابع » فى كتاب مستقل مع دراسة عنها وعن ابن شهيد .

الشعراء والكتاب الأقدمين ، شهادات بتفوقه وعلو كعبه فى الأدب . كل هذا مع كثير من بث الفكاهات ونثر الطرائف ، وإيراد الدعابات .

وقد اختار ابن شهيد لرسالته اسم « التوابع والزوابع » ؛ لأنه جعل مسرحها عالم الجن ، واتخذ كل أبطالها — فيما عداه — من الشياطين . فالتوابع : جمع تابع أو تابعة ، وهو الجن أو الجنية ، يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب . والزوابع : جمع زوبعة ، وهو اسم شيطان أو رئيس للجن .

وقد وجه ابن شهيد رسالته إلى شخص كنّاه بأبى بكر ، وقدم فى أول رسالته بما يشبه المدخل إلى القصة . فذكر عن نفسه كيف تعلم ونبغ ، وكيف تعجب صاحبه أبو بكر من عبقريته ، وأقسم أن تابعة تنجده ، وزابعة تؤيده ، لأن ما يأتى به من أدب ليس فى قدرة الإنس . ثم أقر ابن شهيد أبا بكر على تفسيره ، فبين أنه كان يرثى حبيباً له قد مات ، فأرتج عليه أثناء النظم ، وعجز عن تكميل ما هو بسبيله من شعر ، وإذا بجنى اسمه زهير بن نمير يتصور له على هيئة فارس ، ويلقى إليه بتتمة الشعر ، حباً فى اصطفائه ورغبة فى مصاحبته كما صاحب التوابع الشعراء . ثم ذكر له هذا الجنى أبياتاً يستحضره بإنشادها متى أراد ، وأوثب بعد ذلك فرسه جدار الحائط وغاب . ويذكر ابن شهيد لأبى بكر أنه كان كلما أرتج عليه ، أنشد الأبيات ، فيتمثل له صاحبه الجنى زهير بن نمير ، فيعين قريحته ، وينطق لسانه ، حتى تأكدت الصحبة بينهما .

بعد ذلك التمهيد ينتقل ابن شهيد إلى صلب القصة ، فيذكر أنه تذاكر يوماً مع تابعه هذا ، فتناولا أخبار الشعراء والخطباء وأصحابهم من التوابع والزوابع ، وسأل ابن شهيد صاحبه قائلا : هل من حيلة إلى لقاء من اتفق منهم ؟ فقال له زهير : حتى أستأذن شيخنا ، فطار ثم عاد وقد أذن له . فقال لابن شهيد حُلَّ على متن الجواد ، فصار

ابن شهيد مع تابعه عليه . ثم سار بهما كالطائر ، يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدوّ فالدو ؛ حتى أتى أرض الجن . وهناك طاف به تابعه على صاحب امرئ القيس ، وصاحب طرفة ، وصاحب قيس بن الخطيم من الجاهليين ، ثم على صاحب أبى تمام ، وصاحب البحترى ، وصاحب أبى نواس ، وصاحب أبى الطيب من الإسلاميين . وابن شهيد فى كل لقاء يصور الجو الذى لقى فيه تابعة الشاعر ، ويرسم التابعة نفسه بكثير من الملامح التى عرف بها الشاعر فى الحياة . ثم يسمع من هذا التابعة وينشده ، وينال آخر الأمر إعجابه .

ثم يذكر ابن شهيد أنه طلب من تابعه زهير بن نمير أن يلقى به توابع الكتاب — وهو يسميهم الخطباء — ويحكى أن زهيراً سار به إلى هؤلاء التوابع ، وقد اجتمعوا للمذاكرة ببعض المروج ، وفيهم تابعة الجاحظ وتابعة عبد الحميد . وقدم زهير ابن شهيد إلى صاحب الجاحظ ، الذى شهد له ، ولكنه أخذ عليه كلفه بالسجع . وقد دافع ابن شهيد عن نفسه ، بما حمل صاحب عبد الحميد على التدخل فى النقاش ، وكان يتهم ابن شهيد أيضاً ، ولكن ابن شهيد ناظره وصمد له ، حتى رضى عنه الصاحبان ، وسألاه أن يقرأ لهما بعض رسائله ؛ فلما قرأ استحسنا كتابته وتبسطا معه . وهنا شكا لهما حساده من الأندلسيين ؛ حتى وصل إلى أبى القاسم الإفليلى[1] — وكان لغوياً يكثر من نقد ابن شهيد — فناديا تابعته ، فتصدى لابن شهيد بالنقد والتجريح ، ولكن ابن شهيد أخرسه وأبطل كل أقواله . ثم تدخل صاحب بديع الزمان ، فعارضه ابن شهيد بقطعة له فى وصف الماء ، فأفحمه وأخجله . وحينئذ أجازه صاحبا الجاحظ وعبد الحميد وأقرا بتفوقه .

---

(١) اقرأ ترجمته فى : الذخيرة م ١ ق ١ ص ٢٤٠ وفى : جذوة المقتبس ترجمة رقم ١٦٢ ، وفى : الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٢٦٠ وفى وفيات الإعيان جـ ١ ص ١٢ . وفى المغرب لابن سعيد جـ ١ ص ٧٢ — ٧٤ .

وبعد ذلك يحكى أبو عامر حضوره مجلس أدب من مجالس الجن يدور الحديث فيه حول الموازنة ، وتعبير شعراء مختلفين عن معنى واحد كل بطريقته ، ثم ينتقل الحديث فى المجلس إلى السرقات الأدبية ، وكيف يمكن أن تحدث السرقة دون أن يفتضح صاحبها . وابن شهيد يقدم فى كل موقف رأياً معجباً وشعراً مطرباً .

وأخيراً ينتقل ابن شهيد وتابعته إلى أرض بها حيوان الجن من بغال وحمير ؛ فيذكر أنه شاهدهم وقد اختلفوا فى قطعتين شعريتين غزليتين ، إحداهما لبغل محب ، والأخرى لحمار عاشق ، وأنهم دعوا ابن شهيد لتقويم النصين والحكم بين الشاعرين الغزلين . فسمع ابن شهيد القطعتين ، ثم سأل بعض الأسئلة وقضى بما رأى من حكم .

ثم ينتقل إلى أوزة كانت فى بركة ماء ، وهى تابعة لبعض شيوخ اللغة ، وقد تعرضت له الأوزة ، وأرادت مناظرته فى النحو والغريب ؛ ولكن ابن شهيد زجرها وذكرها بسخفها وحماقتها . . وهنا انتهى ما بقى لنا من رسالة التوابع والزوابع .

وقد ذكرنا أن ابن شهيد وجه رسالته تلك إلى من كناه بأبى بكر . وقد فسر ابن بسام أبا بكر هذا بأنه أبو بكر بن حزم[١] وتبعه فى ذلك ابن سعيد[٢] وكثير ممن كتبوا عن ابن شهيد[٣] . والمعروف أن أبا بكر بن حزم قد مات صغيراً ، وقبل أن يؤلف ابن شهيد رسالته بزمن طويل ؛ فقد مات فى الطاعون الذى اجتاح قرطبة سنة ٤٠١ هجرية ، كما ذكر أخوه أبو محمد بن حزم فى كتابه « طوق الحمامة »[٤] . على أن صلة ابن شهيد ببنى حزم ، كانت بينه وبين أبى محمد وأبى المغيرة ، ولم تعرف له صلة بأبى

---

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢١٠ .

(٢) انظر : المغرب جـ ١ ص ٧٩ .

(٣) مثل الدكتور أحمد ضيف فى كتاب بلاغة العرب فى الأندلس (ص ٤٨) ومثل الدكتور زكى مبارك فى النثر الفنى (جـ ١ ص ٢٦١) .

(٤) طوق الحمامة ص ١١٦ .

بكر هذا . فأغلب الظن أن الأمر التبس على ابن بسام حين رأى الرسالة موجهة لأبى بكر ، وحين علم أن ابن شهيد كانت له صلة ببنى حزم ، وحين علم أيضاً أن من بنى حزم من كان اسمه أبا بكر . وغاب عن صاحب الذخيرة أن أبا بكر هذا قد مات قبل تأليف الرسالة بزمن طويل .

والذى يمكن ترجيحه أن أبا بكر الذى وجه إليه ابن شهيد رسالته ، هو أبو بكر الكاتب المعروف بأشكمياط . وذلك لأن هذا الكاتب بعينه قد نقد أبا عامر وعابه بأنه يستبيح كنوز غيره . وقد ذكره ابن شهيد فى رسالة ورد عليه[1] .

بين التوابع والزوابع ورسالة الغفران :

وواضح أن رسالة « التوابع والزوابع » تشبه إلى حد كبير « رسالة الغفران» لأبى العلاء المعرى ، فكل من الرسالتين عرض لمشكلات أدبية بطريقة قصصية ، وكل من القصتين اتخذ عالماً آخر غير دنيانا ليكون مسرحاً لأحداثه ، وكل من المؤلفين عرّض بمعاصريه ونقد سابقيه . وأوضح ما بين الرسالتين من خلاف فى الخطوط العامة أمران : الأول أن أبا العلاء جعل مسرح قصته الدار الآخرة بفردوسها وجحيمها ، وأن ابن شهيد جعل مسرح قصته دار الجن بأرضها الغريبة وأجوائها العجيبة . والأمر الثانى هو أن أبا العلاء جعل اهتمامه الأكبر بالمشكلات الفلسفية والمعضلات الدينية ، على حين وجه ابن شهيد جل اهتمامه للقضايا الأدبية والبيانية . وهذا الخلاف راجع إلى طبيعة كل من الكتابين واتجاهه .

وهذا التشابه بين الرسالتين قد دعا الباحثين إلى التفكير فى مشكلة : من المؤثر ومن المتأثر فى هذين العملين الرائعين ؟

---

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٩٥ – ١٩٦ .

وقد مال المرحوم الدكتور أحمد ضيف إلى القول بأن ابن شهيد هو المتأثر فقال : « ولعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء فى ذلك لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق فى كل شىء[١] » .

والحق أن المسألة عكس ما رجح المرحوم الدكتور ضيف ؛ فقد ألف ابن شهيد رسالته قبل أن يؤلف أبو العلاء رسالته ، والراجح أن أبا العلاء قد تأثر بابن شهيد ، وإن أدرك ابن شهيد عصر أبى العلاء . أما شهرة أبى العلاء فى المشرق والمغرب ؛ فتقابلها شهرة ابن شهيد فى المغرب والمشرق أيضاً . وأما قضية تقليد أهل الأندلس لأهل المشرق فى كل شىء ، فهى قضية لا تثبت للتحقيق العلمى الدقيق . وفى بيان المبتكر والمقلد فى مسألة الأدب الأخروى هذه ، دليل من أدلة كثيرة على فساد هذا الحكم الجائر المجانب للحق .

وتحقيق الأمر أن ابن شهيد قد ألف رسالته قبل تأليف أبى العلاء رسالته بما لا يقل عن تسع سنوات ، وأن رسالة ابن شهيد قد وصلت إلى المشرق فى حياة ابن شهيد وفى حياة أبى العلاء . وبيان ذلك هو : أنه بالبحث فى نص رسالته « التوابع والزوابع » وجدت نصوص مرتبطة بتواريخ بعينها ، وهذه التواريخ يمكن أن تشير إلى الزمن الذى كتبت فيه الرسالة . فمثلا جاء فى الرسالة ما يدل على أن بعض حساد ابن شهيد وشوا به عند سليمان المستعين[٢] ، ومعروف أن هذا الخليفة قد حكم ما بين سنة ٤٠٣ ، ٤٠٧ هـ. وقد دعا ذلك بعض الباحثين كالدكتور زكى مبارك إلى القول بأن تلك الرسالة ألفت فى تلك الفترة[٣] . وعلى هذا تكون قد ظهرت قبل رسالة الغفران بنحو عشرين عاماً ؛

---

(١) انظر : بلاغة العرب فى الأندلس ص ٤٨ .

(٢) انظر الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٣٣ .

(٣) انظر : النثر الفنى حـ ١ ص ٢٥٩ .

لأن الأخيرة قد ألفت حوالى ٤٢٤ كما سنبين .

على أن ذلك الرأى ليس دقيقاً أيضاً ؛ فقد اشتملت « التوابع والزوابع » على نصوص أخرى يرجع تاريخها إلى ما بعد هذا التاريخ . من ذلك قصيدة ابن شهيد التى قالها وهو فى سجن الحموديين ؛ فالمرجح أن يكون قد قال هذه القصيدة أيام القاسم بن حمود الذى يغلب أن يكون قد سجن ابن شهيد لصلته بمنافس القاسم والثائر عليه ، وهو يحيى بن حمود . وقد كانت خلافة القاسم سنة ٤١٣ هـ

وفى الرسالة كذلك ما يؤخر زمن تأليفها عن هذا التاريخ ، فقد اشتملت على بعض رثاء ابن شهيد لأبى عبيدة حسان بن مالك[١] . وكان هذا المرثى ضمن وزراء المستظهر سنة ٤١٤[٢] .

وهكذا نرى أن تاريخ الانتهاء من رسالة التوابع والزوابع يجب أن يكون بعد هذا التاريخ ، على أننا لا نستطيع أن نجعله بعد ذلك إلا بزمن يسير لأننا لا نجد فى الرسالة نصوصاً ترجع إلى تاريخ متأخر عن هذا التاريخ ؛ ولأن فى « التوابع والزوابع » أبياتاً يمدح بها ابن شهيد صديقه أبا محمد بن حزم ويذكر شافعيته[٣] ، ومعروف أن ابن حزم إنما كان شافعياً فى تلك الفترة أو بعدها بقليل ، وأنه تحول بعد ذلك إلى الظاهرية ، وعلى هذا يمكن القول بأن ابن شهيد قد أتم رسالته سنة ٤١٥ هـ .

أما رسالة الغفران ، فمعروف أنها كتبت ردًّا على رسالة ابن القارح ، وقد ذكر ابن القارح فى رسالته ما يفيد أنه كتبها حين كان عمره نيفاً وسبعين[٤] ، فإذا عرفنا أن مولد

---

(١) انظر : الذخيرة ق ١ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ٣١ .

(٢) انظر : مطمح الأنفس ص ٢٩ — ٣٠ .

(٣) انظر : ق ١ م ١ ص ٢٥٠ .

(٤) انظر : انظر رسائل البلغاء لمحمد كرد على ص ٢٢ .

ابن القارح كان سنة ٢٥١ هـ[١] ، وإذا أضفنا إلى ذلك سبعين فقط ؛ كانت النتيجة أن رسالة ابن القارح قد كتبت حوالى سنة ٤٢١هـ ثم كانت نتيجة النتيجة أن رسالة الغفران التى هى رد على الرسالة السابقة قد كتبت بعد ذلك . فإذا وضعنا فى حسابنا ما يستفاد من كلام ابن القارح من أنه كان فوق السبعين ، وما اعتذر به أبو العلاء من أنه أخر الرد لأنه مستطيع بغيره[٢] ، كان من المعقول أن تكون رسالة الغفران قد كتبت حوالى سنة ٤٢٤ هـ [٣] وهذا ما يرجحه نص فى رسالة الغفران ؛ إذ يقول أبو العلاء فيمن يتحدثون عن الغيب : « ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب حرسها الله فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، اسمه فلان بن فلان»[٤] .

وعلى هذا يتحقق أن رسالة ابن شهيد سبقت رسالة أبى العلاء بنحو تسعة أعوام ، برغم أن ابن شهيد أدرك عصر أبى العلاء .

أما تأثر أبى العلاء فراجح من التشابه الشديد بين الرسالتين ؛ وأغلب الظن أن رسالة « التوابع والزوابع» قد نقلت إلى المشرق فى حياة ابن شهيد وأبى العلاء ؛ فقد أشاد بنصوص منها مؤلفون مشارقة ، عاشوا فى زمن الأديبين الكبيرين ؛ فالثعالبى[٥] — وهو معاصر لابن شهيد وأبى العلاء — قد نقل فى كتابه يتيمة الدهر ، بعض نصوص تلك الرسالة ، كوصف ابن شهيد للماء والحلوى وغير ذلك[٦] .

وعلى هذا يترجح تأثر أبى العلاء بابن شهيد ، برغم شهرة أبى العلاء فى المشرق والمغرب .

---

(١) انظر : معجم الأدباء جـ ١٥ ص ٨٤ .
(٢) انظر : رسالة الغفران تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء ص ٥٥١ .
(٣) انظر : النثر الفنى للدكتور زكى مبارك جـ ١ ص ٢٦ ، والغفران للدكتورة بنت الشاطىء ص ١٠ .
(٤) انظر : رسالة الغفران تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء ص ٣٨٧ .
(٥) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٩١ .
(٦) انظر يتيمة الدهر . جـ ٢ ص ٣٨ — ٤١ .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان التفات ابن شهيد إلى هذا اللون القصصى الأخروى ، مفخرة للأديب الأندلسى ، جعلته سابقاً لمن ولجوا هذا الباب بعد ذلك من أدباء المشرق والمغرب ، كأبى العلاء فى « رسالة الغفران » و « دانتى » فى « الكوميديا الإلهية » La Divina Comedia.

أصل هذا النوع من القصص هو قصة المعراج :

على أنه لا يمكن أن يغفل النبع الحقيقى لهذا النوع من القصص ، فهو مصدرها الأصلى وجذرها الحقى ؛ ذلك المصدر هو قصة المعراج الإسلامية ، التى تحكى صعود محمد عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء ، إلى السموات على ظهر براق ، وفى صحبته جبريل عليه السلام ، حيث رأى عالماً آخر غير عالمنا الذى نعيش فيه. فالمعقول أن تكون قصة المعراج هى أول قصة فى التراث العربى ، ينتقل فيها البطل إلى عالم آخر ، على ظهر فرس يسابق الريح وفى صحبة رائد يرود الطريق ، وينتقل بالبطل من جو إلى جو ومن مشهد إلى مشهد ، من أجواء ومشاهد لا تعرف فى دنيانا نحن .

والمعقول أيضاً أن تكون قصة المعراج وما اشتملت عليه من أوصاف للجنة والنار ، وطوائف المنعمين والمعذبين ، قد أمدت أبا العلاء بكثير من المشاهد التى ضمنها « رسالة الغفران » . وعلى هذا يرجح أن يكون أبو العلاء قد أفاد من « التوابع والزوابع » ، وخاصة من ناحية مناقشة الأدباء ، وعرض بعض مسائل الأدب ، وأفاد كذلك من « المعراج » وخاصة من ناحية وصف الفردوس والجحيم ، وعرض بعض مشاهد الآخرة .

أثر قصة المعراج فى الكوميديا الإلهية :

وقد ذهب بعض الدارسين[1] إلى تأثر « دانتى » فى ملحمته الكوميديا الإلهية

---

(١) من أول من تنبهوا للعلاقة بين الغفران والكوميديا الإلهية : البستانى مترجم الإلياذة ، فقد ذكر فى مقدمة الترجمة التى ظهرت سنة ١٩٠٤ : أن أبا العلاء سبق بملحمته النثرية دانتى الإيطالى وملتن الإنجليزى ، ثم جاء الأستاذ جورجى زيدان فذكر فى كتابه تاريخ الآداب العربية أنه يمكن القول باقتباس الأدبيين الغربيين من أبى العلاء (جـ ٢ ص ٢٦٢) .

La Divina Comedia برسالة الغفران لأبى العلاء ، حتى ظهرت نظرية المستشرق الإسبانى الأستاذ « ميجل أسين بلاثيوس » Miguel Asin Palacios [١] ، فحاول إثبات أن « دانتى » قد بنى كوميدياه على أصول إسلامية ، من بينها رسالة الغفران وقصة المعراج وما كتبه المفسرون عن الدار الآخرة والجنة والنار ، وما قاله بعض الفلاسفة والمتصوفة المسلمين حول الكون ومركزه ودوائره وأفلاكه ، وفى مقدمة هؤلاء ، المتصوف الأندلسى محيى الدين بن عربى[٢] . وقد قامت نظرية الأستاذ « ميجل أسين » على دراسة مقارنة لكل من ملحمة « دانتى » وتلك الأصول الإسلامية وما اشتملت عليه هذه وتلك من مشاهد وتفاصيل . ولم يكن ينقص تلك النظرية لكى تصبح حقيقة مؤكدة إلا اكتشاف نصوص مترجمة للكتابات الإسلامية التى يمكن أن تكون قد وصلت إلى إيطاليا قبل أن يؤلف « دانتى » كوميدياه ، حتى يستطاع التأكد من أن الأديب الإيطالى قد استوحى الأدب العربى . وأخيراً اكتُشف نص يؤكد نظرية المستشرق الإسبانى من جانب ، ويحدد المؤثر الإسلامى فى كوميديا « دانتى » من جانب آخر ؛ فقد عثر على مخطوطتين مترجمتين لقصة المعراج ، إحداهما ترجمة لاتينية وقد عثر عليها فى باريس ، والأخرى ترجمة فرنسية وقد عثر عليها فى أكسفورد . وقد نشر الترجمتين سنة ١٩٤٦ الباحث الإسبانى « خوسى مونيث سندينو » Jose Monoz Sendino ، كما قدم لهما بدراسة أثبت فيها أن الترجمتين عملتا فى القرن الثالث عشر[٣] ، بأمر الملك الإسبانى العالم الفونسو العاشر ، وأن ترجمة قصة المعراج كانت بثلاث لغات : الإسبانية والفرنسية واللاتينية . كذلك أثبت أن تلك الترجمة قد عرفت فى أوربا فى فترة ميلاد « دانتى »[٤] ،

---

(١) نشر الأستاذ أسين هذه النظرية سنة ١٩١٩ م فى كتابه :
La Escatalogia Musulmana en La Divina Comedia.

(٢) كتاب ابن عربى الذى وجد فيه الأستاذ أسين مواد يمكن أن يكون قد أفاد منها دانتى هو كتاب : الفتوحات المكية .

(٣) كانت الترجمة فى إشبيلية سنة ١٢٦٤ م .

(٤) ولد سنة ١٢٦٥ م .

ثم انتشرت فى عدد من العواصم العربية قبل أن يكتب الأديب الإيطالى كوميدياه بسنين[١] وأكد الأستاذ « خوسى » بأدلة كثيرة أن ترجمة المعراج قد وصلت إلى يد « دانتى » ، وأنه بنى عليها عمله الأدبى الرائع[٢].

وهكذا صدق هذا الاكتشاف الفكرة الأساسية التى كان قد قال بها الأستاذ « ميجل أسين » كنظرية تحتاج إلى اكتشاف نص ، كما حدد هذا الاكتشاف أيضاً المؤثر الإسلامى فى كوميديا « دانتى » حيث ثبت ذلك المؤثر وهو قصة المعراج بالذات .

أسلوب الرسالة :

وبعد هذا الاستطراد الذى دفعنا إليه الحديث عن القصص الأخرو وسبق ابن شهيد به ؛ نعود إلى « التوابع والزوابع » فنقول : إن أسلوبها يمثل أسلوب النثر الخالص فى فترة الفتنة بالأندلس أصدق تمثيل ؛ فهو أسلوب فيه تأثيرات لطريقة الجاحظ ، ثم تأثيرات لطريقة ابن العميد ، وأخيراً تأثيرات لطريقة بديع الزمان ، التى تميل إلى توشية الأسلوب بالمحسنات المجتلبة وخاصة السجع ، والتى تهتم كثيراً بالوصف . وقد كانت آثار بديع الزمان وطريقته معروفة لدى الأدباء الأندلسيين فى تلك الفترة[٣] ، بل إن بعض كبار الكتاب الأندلسيين كابن شهيد كان مولعاً بمعارضة بديع الزمان فى بعض رسائله المشهورة ، كرسالته فى وصف البرد والنار والحطب ، ورسالته فى الحلواء . فمثل هذه الرسائل جاءت معارضة لمقامات البديع[٤].

---

(١) ظهرت أول صورة للحمة دانتى سنة ١٣٠٧ .

(٢) انظر الدراسة التى كتبها الأستاذ « خوسى » والنصين اللذين نشرهما فى كتابه :
La Escala de Mahoma.

(٣) وقد ورد ذكر بديع الزمان ومقابلة ابن شهيد له فى رسالة التوابع والزوابع . كما ذكر ابن بسام أن أبا المغير بن حزم قد عارض بديع الزمان فى بعض رسائله (الذخيرة ق ١ م ١ ص ١١٧) .

(٤) وردت هذه الرسائل فى « التوابع والزوابع » .

وبعد ، فتلك فقرة من « التوابع والزوابع » فى وصف لقاء ابن شهيد لتابعة أبى نواس فى دنيا الجن . والفقرة تبين اتجاه ابن شهيد فى رسالته ، وتوضح أسلوبه فى كتابته ؛ كما تمثل أسلوب النثر الخالص فى عصره إلى حد كبير .

يقول ابن شهيد : « فضرب زهير الأدهم بالسوط ، فسار بنا فى قننه[1] ، وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل دير حنة[2] ؛ فشق سمعى قرع النواقيس ، فصحت : من من منازل أبى نواس ورب الكعبة العليا ! ! . وسرنا نجتاب أديراً وكنائس وحانات ، حتى انتهينا إلى دير عظيم تعبق روائحه ، وتصوك[3] فوائحه ، فوقف زهير ببابه وصاح : سلام على أهل دير حنة . فقلت لزهير : أو قد صرنا بذات الأكيراح[4] ؟ فقال : نعم » . وأقبلت نحونا الرهابين ، مشددة بالزنانير ، قد قبضت على العكاكيز ، بيض الحواجب واللحى ، إذا نظروا إلى المرء استحى ، مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح . فقالوا : أهلا بك يا زهير من زائر ، وبصاحبك أبى عامر ، ما بغيتك ؟ قال : حسين بن الدنان ، قالوا : إنه لفى شرب الخمرة ، منذ أيام عشرة ، وما نراكما منتفعين به . فقال : وعلى ذلك . ونزلنا ، وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه ، وعكف غزلانه ، وفى فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة[5] ، وقد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وبيده طرجهارة[6] وحواليه صبية كأظب تعطو إلى عرارة[7] . فصاح زهير : حياك الله أبا الإحسان . فجاوب

---

(١) قنن الطريق : سننه ونهجه .

(٢) دير حنه : مكان ورد ذكره فى شعر أبى نواس .

(٣) تصوك : تعبق .

(٤) الأكيراح : تصغير أكراح . وأكراح : جمع كرح بالكسر ، وهى لفظة سريانية الأصل معناها . الكوخ الصغير يكون قرب الدير . واللفظة وردت فى شعر أبى نواس .

(٥) السبلة : ما على الشارب من شعر .

(٦) الطرجهارة : إناء للشرب .

(٧) تعطو : ترفع رأسها . والعرار : نبات ناعم أصفر طيب الريح .

بجواب لا يعقل لغلبة الخمر عليه . فقال لى زهير : اقرع أذن نشوته بإحدى خمرياتك ، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك ، فصحت أنشد من كلمة طويلة :

ولرب حان قد أدرت بديره ... خمر الصبا مزجت بصفو خموره
فى فتية جعلوا الزقاق تكاءهم ... متصاغرين تخشعًا لكبيره
والى علىّ بطرفه وبكفه ... فأمال من رأسى لعبّ كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ... ففتحت من عينى لرجع هديره
يهدى إلينا الراح كل معصفر ... كالخشف خفّره التماح خفيره[1]

فصاح من حبائل نشوته : أأشجعى ؟ قلت : أنا ذاك . فاستدعى ماء قراحا ، فشرب منه وغسل وجهه ، فأفاق واعتذر إلى من حاله . فأدركتنى مهابته ،وأخذت فى إجلاله من العلم والشعر . فقال لى : أنشد ، أو حتى أنشدك ؟ فقلت : إن ذلك لأشد لتأنيسى ، على أنه ما بعدك لمحسن إحسان . فأنشد :

يا دير حنّة من ذات الأُكَيْرَاحِ ... من يصح عنك فإنى لست بالصاحى
يعتاده كل محفوف مفارقه ... من الدهان عليه سحق أمساح[2]
لا يدلفون إلى ماء بآنية ... إلا اغترافا من الغدران بالراح

فكدت والله أخرج من جلدى طرباً . ثم أنشد :

طرحتم من الترحال أمراً فغمّنا

وأنشد أيضاً :

لمن دِمَنٌ تزداد طيب نسيمِ ... على طول ما أقوت[3] وحسن رسوم

---

(١) معصفر : مصبوغ الثوب بالعصفر . والخشف : ولد الظبى . وخفره : جعله خفراً خجولا . والخفير : الحارس .

(٢) السحق : الثوب البالى . والأمساح : جمع مسح بالكسر ، وهو : ثوب من شعر يلبسه الرهبان .

(٣) أقوت : أقفرت .

تجافى البلى عنهن حتى كأنمـــا لبسن من الإقواء ثوب نعيم

واستمر فيه حتى أكملها . ثم قال لى : أنشد ، فقلت : وهل أبقيت للإنشاد موضعاً ؟ قال : لا بد لك ، وأوْعثْ بى ولا تنجد . فأنشدته :

أصباح شِيمَ أم برق بدا أم سنا المحبوب أورى أزنُدا
هبَّ مـــن مرقده منكسراً مســـبلا للكم مـــرخ للـــردا
يمسح النعســـة من عينىْ رشا صائدا فى كل يوم أســـدا
قلت : هب لى يا حبيبى قبلة تشفَ من عمك تبريح الصـــدا
فانثنى يهتـــز مـــن منكبـــه قائلا : لا ، ثم أعطانى اليـــدا
كلمـــا كلمنى قبلته فهـــو إمـــا قال قولا رددا

فلما انتهيت قال : لله أنت ، وإن كان طبعك مخترعاً منك ! (١) .

(ب) النثر التأليفى :

ظهرت فى تلك الفترة كتابات نثرية تأليفية ذات قيمة كبيرة من حيث ما عالجت من موضوعات . وأهم تلك كتابات ابن شهيد المتصلة بالنقد الأدبى ، وكتابات ابن حزم فى فلسفة الحب .

آراء نقدية لابن شهيد :

أما كتابات ابن شهيد ، فقد جاءت كفقرات من رسائل ، ولم تأت على شكل كتاب مستقل مبوب ؛ وهى مع ذلك لمحات نقدية ذكية عظيمة الشأن . فقد تكلم مثلا عن الملكة الأدبية ، التى سماها الطبع ، وبين أنها الأساس الذى يصدر عنه الأديب ،

(١) ورد هذا النص فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٢٢ — ٢٢٤ . وقد وردت القطعة الأخيرة كذلك فى مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ٢٠ ، ٢١ وبين المصدرين خلاف فى بعض الكلمات ، وقد اخترنا الأنسب والأوفق للسياق .

وأنه بدونها لا يمكن أن يقدم أدباً ذا قيمة ، مهما استوفى مسائل النحو وحفظ الغريب.. وبين كذلك أن الملكة يجب أن تقوى بالثقافة اللغوية والأدبية . . . كذلك تحدث ابن شهيد عن طبيعة هذه الملكة وحظ الناس منها ، فبين أن الإنسان مركب من جسم ونفس ، وأن قدر الملكة الفنية يكون على قدر علاقة النفس بالجسم ، فمن غلبت نفسه على جسمه كان مطبوعاً ذا ملكة فنية ، ومن غلب جسمه على نفسه كان مصنوعاً فقيراً من الملكة . . ووضح ابن شهيد كذلك أثر الملكة فى العمل الأدبى ، فبين أنها تهبه قوة التأثير والإيحاء ، وتمنحه روحاً لا يدرى سرها ولا يعرف مصدرها ، ولكنه معها يتعلق بالنفس ، بما له من قوة تأثير لا بما له من ديباجة ، ويستولى على القلب بما فيه من إيحاء لا بما فيه من غريب .

وفى ذلك كله يقول ابن شهيد: « وإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو ، بل بالطبع ، مع وزنه من هذين . ومقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه فى أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً ، يطلع صور الكلام والمعانى فى أجل هيئاتها وأرق لباساتها ؛ ومن كان جسمه مستولياً على نفسه — من أصل تركيبه — والغالب على حسه ، كان ما يطلع من تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى فى الكمال والتمام ، وحسن الرونق والنظام . فمن كانت نفسه مستولية على جسمه ، فقد تأتى منه فى حسن النظام صور رائعة من الكلام ، تملأ القلوب وتشغف النفوس ، فإذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها أساً لم تعرفه ، وهذا هو الغريب ، أن يتركب الحسن من غير حسين ، كقول امرئ القيس : ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى . وقوله :

تنورتها مـــن أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارهـــا نظر عالى

فإن هذه الديباجة إذا تطلبت لها أصلا من غريب معنى لم تجده . وكقول أبى نواس:

طرحتم من الترحال ذكراً فغمنا فلو قد شخصتم صبّح الموت بعضنا

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواك لعل الفضل يجمع بيننا

فهذا من الكلام الغث واللفظ الرث ، الذى لو رامه حمار الكساح لأدركه ، ولكن له من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى »[١].

وتكلم ابن شهيد كذلك عن أثر البيئة والظروف السياسية والاجتماعية فى الأذواق والملكات . وبالتالى فى النتـــاج الأدبى . وبين أن فساد الأزمنة ونبو الأمكنة وانتشار الفتن ، تجعل الفهم سلعة بائرة ، والفن صفقة خاسرة ، وفى ذلك يقول « . . . لا كقوم عندنا ، حظهم من الفهم الحفظ ، ومن العلم الذكر . وهذا حظ القُصَّاص وأعلى مراتب النُّواح . فترى الممخرق منهم إذا قرىء عليه الشعر يزوى أنفه ، ويكسر طرفه ، وإذا عرضت عليه الخطبة يميل شقه ، ويلوى شدقه ؛ فإن تناولهما لم يبق ملحة[٢] إلا حشدها ، ولا أبقى عصفة[٣] فجة إلا جلبها . وأصل قلة هذا الشان ، وعدم البيان ، فساد الأزمنة ونبو الأمكنة ، وإن الفتنة نسخ للأشياء ، من العلوم والأهواء ، ترى الفهم فيها بائر السلعة ، خاسر الصفقة يلمح بأعين الشنآن ، ويستثقل بكل مكان . . . »[٤] .

وتكلم ابن شهيد أيضاً عن تطور الأساليب بتطور الأزمنة واختلافها باختلاف الأمكنة ، فنبه بذلك إلى حقيقة لا يزال يكابر فيها بعض المحدثين ، الذين كان الأديب الأندلسى منذ نحو عشرة قرون ، أكثر مرونة منهم وأدق إدراكا لطبيعة الفن . يقول ابن شهيد : « وكما أن لكل مقام مقالا ، فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة ، وضرب من البلاغة ، لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه »[٥] .

---

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٩٧ – ١٩٨ .
(٢) الملحة : الملاحة .
(٣) العصفة : واحدة العصف ، وهو نبات يتخذ دواء قابضاً .
(٤) انظر : الذخيرة لابن بسام ق١ م ١ ص ١٧٩ .
(٥) انظر الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٢٠٢ .

كذلك تكلم ابن شهيد فى قضية المعنى واللفظ ، أو المضمون والشكل كما يحب المعاصرون أن يقولوا ، فبين أنه لا بد من شرف المعانى ، وفنية التعابير ، وذكر أن الأديب البارع هو الذى يلبس المعانى الشريفة ثوبها الملائم ، لا الثوب الزائف ولا الخداع . وذكر فى فنية الشكل وجوب اختيار مليح اللفظ ورشيق الكلام . وبين أن بين الحروف علاقات يجب أن تراعى ، وبين الكلمات صلات يجب أن تلاحظ ، ليتحقق الانسجام والانسياب الطبيعيان ، ولتأتى الموسيقى الكلامية موقعة منسقة محببة . كذلك ذكر أنه يحسن استعمال مليح النحو ، أى الحسن من قواعده ، واختيار الفصيح من الغريب ، أى السائغ الحسن الوقع منه . وفى هذا كله يقول ابن شهيد : « ومن الواجب على الناقد أن يبحث عن الكلام ، ويفتش عن شرف المعانى ، وينظر مواقع البيان ، ويحترس من حلاوة خداع اللفظ ، ويدع تزويق التركيب ، ويراطل بين أنحاء البديع ، ويمثل أشخاص الصناعة ؛ فقد ترى الشعر فضى البشرة ، وهو رصاصى المكسر ، ذا ثوب معضد[1] أو مهلهل ، وهو مشتمل على برق أو برص »[2] . ويقول : « إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو فى الكلمات ، فإذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك ، حسنت المناظر ، وطابت المخابر . وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ؛ فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب ، وتهرب من قبيحه »[3].

كذلك لمح ابن شهيد بحديث موجز عن الوحدة الفنية ، فذكر أنه على من يتعرض لمعالجة موضوع أن يستوفى جوانبه أولا ، وألا يخرج عما هو بسبيله ثانياً . وفى ذلك يقول ابن شهيد : « ومما يلزم المدعى لصناعة الكلام إذا اعتمد وصف حالة ، أن يستوفى جميعها

---

(١) الثوب المعضد : هو ما له علم فى مكان العضد ، والمراد المزين .

(٢) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٣) انظر : المصدر السابق . ص ١٩٩ .

ويكون ما يطلبه من الإبداع والاختراع فيها غير خارج عنها وما هو بسبيلها »[١].

ومن أحسن ما أثر عن ابن شهيد من كتابات نقدية ، حديثه عن وظائف بعض الأعضاء فى القدرة الأدبية . وصلات الهيئة الإنسانية بالملكة الفنية ، ووجود علامات عضوية تدل على عدم هذه الملكة أو نقصانها . وفى ذلك يقول ابن شهيد فى بعض أدعياء الفن من معلمى قرطبة : « فهذه حال العصابة من المعلمين . يدركون بالطبيعة ، ويقصرون بالآلة ؛ وتقصيرهم بالآلة هو عن طريق العلل الداخلة ؛ من فساد الآلة القابلة للروحانية ، والخادمة لآلات الفهم ، الباعثة لرقيق الدم فى الشريانات إلى القلب ؛ وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ، ونقصانها عن القدر الطبيعى . ومما يعين على ذلك بالحدس وطريق الفراسة ، فساد الآلة الظاهرة، كفرطحة الرأس وتسفيطه ، ونتوء القمحدُوة[٢] ، والتواء الشدق ، وخزر[٣] العين ، وغلظ الأنف ، وانزواء الأرنبة[٤] » .

ومن أحسن ما أثر عن ابن شهيد كذلك مما يتصل بالنقد — وإن كان متعلقاً بشخصية الأديب لا بعمله الأدبى — حديثه عما يجب أن تكون عليه هيئة الأديب المتصل بحكم عمله بالآخرين، ووجوب كونه سليما حسن الهيئة نظيفاً ، لأن عدم ذلك قد ينفر منه ويسىء إلى أدبه تبعاً لذلك . وابن شهيد وإن خص بهذا الكتاب المشتغلين مع الحكام ، فهو ينفع المشبهين لهم من المتصلين بالناس ، كالصحفيين فى عصرنا مثلا . يقول ابن شهيد فى ذلك : « . . .ولذلك استحسنوا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة ، سليم آلات الحوا س ، نقى الثوب ، ولا يكون وسخ الضرس ، منقلب الشفة ، مكحل الأظفور ، وضر الطوق[٥] »

---

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٢٧٣ .
(٢) القمحدوة : مؤخر عظم الرأس المشرف على القفا .
(٣) الخزر : ضيق العينين أو تحريكهما فتحاً وغمضاً ، أو حول إحداهما .
(٤) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
(٥) انظر المصدر السابق ص ٢٠٨ .

طوق الحمامة :

أما كتابات ابن حزم فى فلسفة الحب فقد أودعها كتابه الرائع المسمى « طوق الحمامة »[١]. وهو كتاب يتناول هذه العاطفة الإنسانية بالبحث الذى يعتمد — إلى حد كبير — على التجربة والملاحظة والتحليل النفسى واستخلاص النتائج . وهو من أقدم الأبحاث العربية التى تناولت عاطفة الحب هذا التناول المنهجى المستقل المفصل[٢]. والجميل فيه أن مؤلفه فقيه ، وكان المفروض أن يحجم عن الخوض فى مثل هذا الحديث الذى لم يتعود الفقهاء الخوض فيه . ولكن طبيعة ابن حزم ونشأته من جانب ، وظروف عصره من جانب آخر ، قد جعلته يسطر هذا الكتاب الذى يفخر به الأدب الأندلسى . أما طبيعة ابن حزم ، فهى طبيعة صريحة جريئة . تقول ما تعتقد وتعبر عما تحس ، ولا تعرف نفاقاً أو التواء أو خوفاً من الناقدين . وقد حمل وحده عبء الدعوة للمذهب الظاهرى الذى آمن به ، ولم تثنه مخالفة آلاف الفقهاء ومعارضة جمهرة الأندلسيين .

وأما نشأته ، فقد كانت تشأة تتيح لمثله أن يغرق فى الحب إلى أذنيه ، وأن يحسه فى قلبه وفى قلوب المحيطين به كأشد ما يكون الأحساس ، ذلك أنه نشأ فى وسط الحريم كما سبق أن بينا ، وخالطهن أشد المخالطة فى سنى حياته الأولى[٣]، وقد أتاح له ذلك إدراك كثير من التجارب العاطفية ، كان هو بطلها حيناً ، وكان غيره محورها

---

(١) اسم الكتاب بالكامل : طوق الحمامة فى الألفة والآلاف . وقد طبع عدة طبعات منها طبعة فى لندن سنة ١٩١٤ م، وقد قام بها « د . بتروف » وطبعة فى القاهرة سنة ١٩٥٠ م، وطبعة فى دمشق سنة ١٣٤٩ هـ.

كذلك ترجم الكتاب إلى الإنجليزية ، وعمل تلك الترجمة المستشرق التشيكى (فيكل) ونشرت فى باريس سنة ١٩٣١ . وترجم إلى الروسية بقلم (ساليه)، ونشر فى لنتجراد سنة ١٩٣٣ . وأخيراً ترجم إلى الإسبانية بقلم المستشرق الإسبانى (جارثيا جومث) ، ونشر فى مدريد سنة ١٩٥٣ .

(٢) قد سبقه كتاب « الزهرة » لأبى داود الأصبهانى ، الذى عارضه كتاب « الحدائق » لابن فرج الأندلسى .

(٣) انظر ما كتب عن ابن حزم فى ص ٣٧٥ وما بعدها من هذا الكتاب .

حيناً آخر . ومن هنا جرب تلك العاطفة فى نفسه وكانت له معها تجارب ، وتتبعها فى غيره وكانت له منها دراسات . ثم كانت تلك الظروف القاسية التى حملته على أن يهجر بلده وأن يعيش مهاجراً غريباً فى شاطبة ، ومن شأن هذه الظروف أن تجعل مثل ابن حزم ينطوى على نفسه ، ويتذكر أيام مسراته ، ويستحضر ماضى قلبه ، ويستعرض ذكرياته ، عن نفسه وعن الآخرين . وهنا يكون الحديث فى الحب أمراً طبيعياً ، فهو حديث رجل صريح لا يعرف الخوف حين يذكر ما يعتقد ، وهو حديث خبير غنى بالتجارب والمشاهدات والأقاصيص ، ثم هو حديث أديب مهاجر غريب ، يحب أن ينفس عن نفسه بذكر ماضى قلبه وما يعرف عن قلوب الآخرين .

وكتاب ابن حزم صُنف فى هيئة رسالة ، رد بها على سائل بعث إليه من مدينة ألمرية ، يسأله أن يصنف له رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة[1] . وقد يكون الكتاب قد كتب فعلا بناء على طلب هذا السائل ، وقد يكون ابن حزم قد قدم بذكر هذا الطالب كتسويغ لتسطيره هذا الكتاب ، وهو ما أرجحه ؛ فابن حزم كان معروفاً بين الأندلسيين كفقيه لا كباحث فى الحب ، فغريب أن يسأله سائل أن يحدثه حديثاً مفصلا عن الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، لا عن الفقه الظاهرى والأصول والتوحيد وما إلى ذلك مما من شأنه أن يسأل عنه .

هذا وقد جعل ابن حزم كتابه فى ثلاثين باباً ، تتبع فيها الحب فى نشأته وتطوره وأعراضه ودرجاته وأنواعه ومسعداته ومنغصاته . وهو فى كل باب يتحدث عن الموضوع الذى يعرض له معرفاً ومحللا ومعللا ، ثم يتبع ذلك ببعض الحكايات الواقعية التى شاهدها أو سمع بها ، وكلها تدور حول أندلسيين . وهو يضمن كلامه قطعا من شعره قد قالها فى مثل التجربة أو الظاهرة التى يسوق عنها الحديث .

---

(١) انظر : طوق الحمامة لابن حزم ص ١ ، ٢ .

وقد صدّر كتابه ببيان خطته فقال : « وقسمت رسالتى هذه على ثلاثين باباً ، منها فى أصول الحب عشرة ، فأولها هذا الباب (مائية الحب) ثم باب فى علامات الحب ، ثم باب فى ذكر من أحبّ فى النوم ، ثم باب فى ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب فى ذكر من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب فى ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير » .

« ومنها فى أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً . . . وهى باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ، ثم باب طى السر ، ثم باب الكشف والإذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت » .

« ومنها فى الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب ، وهى : باب العاذل ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى . ثم باب الهجر ، ثم باب البين ، ثم باب السلو » .

« ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما باب الكلام فى قبح المعصية ، وباب فى فضل التعفف ؛ ليكون خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »[1].

وليست قيمة طوق الحمامة فيما اشتمل عليه من أفكار عن الحب فحسب ، وإنما قيمته أيضاً فى تلك الحكايات الكثيرة التى يرويها ابن حزم ، والتى تكشف الكثير من جوانب الحياة الأندلسية ، وتوقفنا على أسرار حكام ورؤساء ، وترفع الستائر عن بيوت وقصور ، وتنبه إلى ما كان لضنوف من النساء من نشاط فى دنيا المحبين ، كالطبيبة ، والحجامة ، والدلالة ، والماشطة ، والمغنية ، والمعلمة ، وما إلى ذلك . وهناك قيمتان أخريان للكتاب ، الأولى : اشتماله على كثير من الأخبار التى تلقى ضوءاً على حياة ابن حزم نفسه.

(١) انظر : طوق الحمامة ص٣ ، ٤ .

والثانية ، تضمنه الكثير من شعره بالإضافة إلى نثره ، فهو عمل ابن حزم الأدبى الأول الذى يدخل به مع الناثرين والشعراء المجيدين من أوسع الأبواب .

وبعد، فهذا نموذج من طوق الحمامة ، وهو من « باب من أحب بالوصف » وفيه يقول ابن حزم :

« ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة وهذا أمر يترقى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد والسهر على غير الإبصار ؛ فإن للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيراً فى النفس ظاهراً ، وأن تسمع نغمتها من وراء جدار ، فيكون سبباً للحب واشتغال البال . وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ، ولكنه عندى بنيان هار على غير أس ، وذلك أن الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير ، لا بد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعينا يقيمها نصب ضميره لا يتمثل فى هاجسه غيرها ، قد مال بوهمه نحوها ؛ فإن وقعت المعاينة يوماً ما ، فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية » .

« وكلا الوجهين قد عَرَض وعُرف ، وأكثر ما يقع هذا فى ربات القصور المحجوبات من أهل البيوتات ، مع أقاربهن من الرجال ، وحب النساء فى هذا أثبت من حب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن وتمكنه منهن . . » [1]

وهذا نموذج آخر من الكتاب ، وهو من باب (طى السر) يقول فيه ابن حزم: « من بعض صفات الحب الكتمان باللسان ، وجحود المحب إن سئل ، والتصنع بإظهار الصبر ، وأن يرى أنه هزهاة[2] خلى . ويأبى السر الدقيق ونار الكلف المتأججة فى الضلوع إلا ظهوراً فى الحركات والعين ، ودبيباً كدبيب النار فى الفحم ، والماء فى يبس المدر [3]. وقد

---

(١) انظر : طوق الحمامة ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) يقال : هو هزهاة عن النساء ، إذا لم يردهن ورغب عنهن .

(٣) المدر : قطع الطين اليابس .

يمكن التنزه فى أول الأمر على غير ذى الحس اللطيف ، وأما بعد استحكامه فمحال. وربما يكون السبب فى الكتمان تصاون المحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنه يزعمه من صفات أهل البطالة ، فيفر منه ويتفادى عنه . وما هذا وجه التصحيح؛ فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل ، التى يأتيها باختياره ، ويحاسب عليها يوم القيامة ، وأما استحسان الحسن ، وتمكن الحب ، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقابها ، ولا يلزمها غير المعرفة والنظر فى فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين ؛ وأما المحبة فخلقه ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة . وفى ذلك أقول :

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى ... وسيان عندى منك لاح وساكتُ
يقولون : جانبت التصون جملة ... وأنت عليم بالشريعـــة قانت
فقلت لهم : هذا الرياءُ بعينه ... صُراحًا وزِيٌّ للمراثين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد ... وهل مَنْعُهُ فى محكم الذكر ثابت ؟
إذا لم أواقع مَحْرَمًا أتنى به ... مجنيَّ يوم البعث والوجه باهت
فلست أبالى فى الهوى قول لائم ... سواء لعمرى جاهر أو مخافت
وهل يلزم الإنسان إلا اختياره ... وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت ؟ ؟

« وإننى لأعرف بعض من امتحن بشىء من هذا ، فكنَّ الوجد بين جوانحه ، مرام جحده ، إلى أن غلظ الأمر ، وعَرَف ذلك فى شمائله مَن تعرض للمعرفة ومن لم يتعرض ، وكان من عرض له بشىء نجهه[1] وقبحه ، إلى أن كان من أراد الحظوة لديه من إخوانه يوهمه تصديقه فى إنكاره ، وتكذيب من ظن به غير ذلك ، فسر بهذا . ولعهدى به يوماً قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما فى ضميره وهو ينتفى غاية الانتفاء ، إذ اجتاز

(١) نجهه : رده أقبح رد .

بهما الشخص الذى كان يتّهم بعلاقته . فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه ، حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى واصفر لونه ، وتفاوتت معانى كلامه بعد حسن تثقيف ، فقطع كلامه المتكلم معه ، فقد استدعى ما كان فيه من ذكره ، فقيل له : ما عدا عما بدا . فقال : هو ما تظنون ، عَذَرَ مَن عذر ، وعَذَلَ مَن عذل . . . »[1]

ويلاحظ على ابن حزم كناثر – من خلال الطوق – أنه كان لا يكلف بالصنعة كلف غيره من معاصريه ، فهو يؤثر البساطة على التكلف ، والدقة على الحلية . كذلك يلاحظ أن الثقافة العقلية والدينية كانت تنعكس أحياناً على أسلوبه ، فيورد بعض مصطلحات الفلسفة والمنطق ، ويهتم بالعلل والمقدمات والنتائج ، كما يورد بعض المصطلحات الفقهية أو الدينية على وجه العموم .

ويلاحظ على ابن حزم أخيراً ، أنه من الذين لم يقعوا تحت تأثير طريقة بديع الزمان .

أما شعر ابن حزم – من خلال الطوق أيضاً – فيلاحظ عليه أن أغلبه قطع وأبيات ، وهى من الناحية الفنية تتراوح بين الجودة والتوسط . ولغة ابن حزم الشعرية تنعكس عليها أحياناً ثقافته العقلية والدينية ، تماماً كما يحدث فى لغته النثرية .

---

(١) انظر : طوق الحمامة صفحة ١٨ – ١٩ .

مراجع الكتاب

أولا : المراجع العربية

(أ) المخطوطات

١ ــ الإحاطة فى أخبار غرناطة : للسان الدين بن الخطيب (مخطوطة بالإسكوريال رقم ١٥٧٣) .

٢ ــ إعتاب الكتّاب : لابن الأبار (مخطوطة بالإسكوريال رقم ١٧٣١) .

٣ ــ ديوان ابن سهل : لإبراهيم بن سهل الإشبيلى (مخطوطة بالإسكوريال رقم ٣٧٩) .

٤ ــ المقتبس : لأبى مروان بن حيان (الجزء الخاص بعبد الرحمن الأوسط . وهو عند الأستاذ ليفى بروفنسال) .

(ب) المطبوعات :

١ ــ ابن حزم « صورة أندلسية » : للدكتور طه الحاجرى (مطبعة الاعتماد بالقاهرة) .

٢ ــ ابن عبد ربه وعقده : لجبرائيل جبور (بيروت سنة ١٩٣٣) .

٣ ــ أبو تمام الطائى : للدكتور نجيب البهبيتى (القاهرة ١٩٤٥) .

٤ ــ الإحاطة : لابن الخطيب (القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) .

٥ ــ أخبار مجموعة . لمؤلف مجهول ، تحقيق لافونتى ألكانترا (مدريد سنة ١٨٦٧) .

٦ ــ أدب الأندلس وتاريخها : لليفى بروفنسال ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة (المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥١) .

obeikandl.com

٧ ــ الإسلام فى المغرب والأندلس : لليڤى بروفنسال ترجمة الدكتور محمد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى (نهضة مصر سنة ١٩٥٧) .

٨ ــ أعمال الأعلام : لابن الخطيب ، تحقيق ليڤى بزوفنسال (بيروت ١٩٥٦) .

٩ ــ بغية الملتمس : لأحمد بن يحيى الضبى نشر المستشرق الإسبانى كوديرا (مدريد سنة ١٨٨٤) .

١٠ ــ بغية الوعاة : للسيوطى (القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ) .

١١ ــ بلاغة العرب فى الأندلس : للدكتور أحمد ضيف (مطبعة مصر سنة ١٨٢٤) .

١٢ ــ البيان المغرب : لابن عذارى المراكشى ، جزء أول وثان (مطبعة المناهل بيروت سنة ١٩٥٠) .

وجزء ثالث نشر ليڤى بروفنسال (باريس سنة ١٩٣٠) .

١٣ ــ تاريخ افتتاح الأندلس : لابن القوطية ، تحقيق جايانجوس ، نشر ربيرا (مدريد سنة ١٩٢٦) .

١٤ ــ تاريخ آداب العرب : لمصطفى صادق الرافعى (القاهرة سنة ١٩٤٠) .

١٥ ــ تاريخ الشعر العربى : للدكتور نجيب البهبيتى (القاهرة ١٩٥٠) .

١٦ ــ تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس : للحافظ أبى الوليد بن الفرضى ، نشر السيد عزت العطار (القاهرة سنة ١٣٧٣ هـ) .

١٧ ــ تاريخ الفكر الأندلسى : لأنخل جونثالث بالنثيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس (النهضة المصرية سنة ١٩٥٥) .

١٨ ــ تبيين المعانى فى شرح ديوان ابن هانى : لزاهد على (القاهرة سنة ١٩٣٤) .

١٩ ــ التكملة : لابن الأبار ، الجزء الذى نشره كوديرا ضمن المكتبة الأندلسية (مدريد سنة ١٨٨٧ ــ سنة ١٨٩٠) .

٢٠ ــ جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس : لأبى عبد الله بن محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدى ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى (السعادة . مصر سنة ١٩٥٣) .

٢١ ــ جمهرة أنساب العرب : لابن حزم، تحقيق ليڤى بروفنسال (دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٤٩) .

٢٢ ــ الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية : لشكيب أرسلان (المطبعة الرحمانية. القاهرة سنة ١٣٥٥ هـ) .

٢٣ ــ الحلة السيراء : لابن الأبار ، نشر د وزى (طبعة ليدن سنة ١٨٥١) .

٢٤ ــ دار الطراز : لابن سناء الملك ، تحقيق الدكتور جودت الركابى (دمشق . سنة ١٩٤٩) .

٢٥ ــ دولة الإسلام فى الأندلس : لمحمد عبد الله عنان. العصر الأول (لجنة التأليف : القاهرة سنة ١٣٦٢ هـ) .

٢٦ ــ ديوان ابن دراج القسطلى ، تحقيق الدكتور محمود مكى (دمشق ١٩٦١) .

٢٧ ــ ديوان ابن الرومى ، تحقيق كامل كيلانى (القاهرة ١٩٤٢) .

٢٨ ــ ديوان ابن المعتز (القاهرة ١٨٩١) .

٢٩ ــ ديوان ابن هانئ (بيروت سنة ١٨٨٦) .

٣٠ ــ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة : لأبى الحسن على بن بسام ، تحقيق لجنة من كلية آداب جامعة القاهرة . القسم الأول ، المجلد الأول سنة ١٩٣٩ ، المجلد الثانى ١٩٤٢ القسم الرابع ، المجلد الأول سنة ١٩٤٥ (لجنة التأليف القاهرة) .

٣١ ــ رسالة التوابع والزوابع . لأبى عامر بن شهيد ، تحقيق وتقديم بطرس البستانى (بيروت سنة ١٩٥١) .

٣٢ ــ رسالة الغفران : لأبى العلاء ، تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء (القاهرة سنة ١٩٥٠)

٣٣ – الروض المعطار فى خبر الأقطار : لعبد المنعم الحميرى . تحقيق ليڤى بروفنسال (القاهرة سنة ١٩٣٧) .

٣٤ – الروضيات : للصنوبرى ، جمع محمد الطباخ (حلب سنة ٣٤١ هـ) .

٣٥ – الزجل فى الأندلس : للدكتور عبد العزيز الأهوانى (الرسالة . القاهرة سنة ١٩٥٧) .

٣٦ – الشرق الإسلامى والحضارة العربية الأندلسية : ليڤى بروفنسال ، ترجمة الفريد البستانى (تطوان سنة ١٩٥١) .

٣٧ – الشعر الأندلسى : لجارثيا جومث ، ترجمة حسين مؤنس (لجنة التأليف . القاهرة القاهرة سنة ١٩٥٢) .

٣٨ – الصقالبة فى إسبانيا : للدكتور أحمد مختار العبادى (مدريد ١٩٥٣) .

٣٩ – الصلة : لابن بشكوال ، تحقيق السيد عزت العطار (السعادة . سنة ١٩١٥) .

٤٠ – طبقات الأطباء : لابن جلجل ، تحقيق فؤاد السيد (القاهرة ١٩٥٩) .

٤١ – طبقات الأمم : لصاعد التطيلى ، نشر لويس شيخو (بيروت ١٩١٢) .

٤٢ – طبقات النحويين : للزبيدى ، تحقيق أبى الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٥٤) .

٤٣ – طوق الحمامة فى الألفة والألاف : لأبى محمد على بن حزم ، مكتبة عرفة (دمشق ، سنة ١٣٤٩ هـ) .

٤٤ – ظهر الإسلام : للدكتور أحمد أمين . الجزء الثالث (لجنة التأليف القاهرة سنة ١٩٥٣) .

٤٥ – العرب فى إسبانيا : لاستانلى لين بول ؛ ترجمة على الجارم (دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٤٧) .

٤٦ – العقد الفريد : لابن عبد ربه (الشرفية . القاهرة سنة ١٣٠٤ هـ) .

٤٧ ــ الغفران : للدكتورة بنت الشاطىء (القاهرة سنة ١٩٥٤) .

٤٨ ــ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : للدكتور شوقى ضيف (القاهرة ١٩٤٣) .

٤٩ ــ قضاة قرطبة : لأبى عبد الله الخشنى ، نشر السيد عزت العطار (القاهرة سنة ١٣٧٢ هـ) .

٥٠ ــ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء : لابن أبى أصيبعة (القاهرة سنة ١٨٨٢) .

٥١ ــ ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة . للدكتور عبد العزيز الأهوانى (القاهرة ١٩٥٧) .

٥١ ــ اللهجات العربية : للدكتور إبراهيم أنيس (القاهرة . الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦) .

٥٢ ــ المطرب من أشعار أهل المغرب : لابن دحية ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، والدكتور حامد عبد المجيد ، والدكتور أحمد بدوى (الأميرية سنة ١٩٥٤) .

٥٤ ــ مطمح الأنفس . للفتح بن خاقان (القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ) .

٥٥ ــ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب : لعبد الواحد المراكشى (السعادة القاهرة سنة سنة ١٣٢٤ هـ) .

٥٦ ــ معجم الأدباء : لياقوت (القاهرة سنة ١٩٣٨) .

٥٦ ــ المغرب فى حلى المغرب : لعلى بن سعيد المغربى ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف . الجزء الأول والثانى (دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٥٣ ــ ١٩٥٥) .

٥٨ ــ المفضليات : للضبى (القاهرة سنة ١٩٦١هـ) .

٥٩ ــ المقتبس لابن حيان ، تحقيق ملتشور أنطونيا (باريس سنة ١٩٣٧) .

٦٠ ــ المقدمة : لابن خلدون (دار مصطفى محمد ــ القاهرة) .

٦١ ــ من حديث الشعر والنثر : للدكتور طه حسين (القاهرة ١٩٣٦) .

٦٢ – النثر الفنى فى القرن الرابع : للدكتور زكى مبارك (مطبعة دار الكتب المصرية . سنة ١٣٥٢ هـ) .

٦٣ – النجوم الزاهرة . لابن تغرى بردى (القاهرة ١٩٢٩ – ١٩٣٣) .

٦٤ – نزهة المشتاق : للإدريسى (طبعة رومة سنة ١٨٨٣) .

٦٥ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : لأحمد المقرى المغربى (المطبعة الأزهرية . سنة ١٣٠٢ هـ) .

٦٦ – وفيات الأعيان : لابن خلكان (القاهرة . سنة ١٣١٠ هـ) .

٦٧ – يتيمة الدهر : للثعالبى . تحقيق محيى الدين عبد الحميد (القاهرة ١٣٧٥ – ١٣٨٧هـ)

obeikandl.com

ثانياً : المراجع الأوربية

1. Américo Castro : Espana en su Historia. (Buenos Aires 1947).
2. Angel Gonzalez Palencia : Historia de la Espana Musulmana. (Barcelona 1945).
3. Angel Gonzalez Palencia : Historia de la Literatura Arabigo-Espanola. (Barcelona1945).
4. Claudio Sanchez Al Bornoz : La Espana Musulmana. (Buenos Aires 1946).
5. D. Antonio Ballesteros Beretta : Historia de Espana. (Barcelona 1945).
6. Emilio Garcia Gomez: Poemas Arabigo Andaluces. (Madrid 1943).
7. Emilio Garcia Gomez : Poesia Arabigo Andaluza. (Madrid 1943).
8. E. Levi-Provençal : Espana Musulmana Hasta la Caida del Califato de Cordoba. (Traduccion Espanola por : Emilio Garcia Gomez). (Madrid 1950).
9. Felixs M. Pareja: Islamologia. (Madrid 1952-1954).
10. Francisco Pons Biogues : Historiadores y Geografos. Arabigo-Espanoles. (Madrid 1898)
11. Jose M. Millas Vallicrosa : La Poesia Sagrada Hebraico-Espanola. (Espana 1948).
12. Jose Munoz Sendino : La Escala de Mahoma. (Madrid 1949),
13. Julian Ribera y Tarrago : Disertaciones y Opusculos. (Madrid 1928).

14. M. Casiri : Biblioteca Arabico-Hespana Escurialensis.(Madrid 1770).

15. Miguel Asin Palacios: La Escatalogia Muslumana en la Divina Comedia. (Madrid 1919).

16. Miguel Asin Palacios : Abenhazam de Cordoba y Su Historia de Las ideas Religiosas. (Madrid 1935).

17. Miguel Asin Palacios: Obras Escogidas. (Madrid 1940).

18. Pedro Aguado Bleye: Historia de Espana. (Madrid 1947).

19. Ramon Menendez Pidal; Poesia Arabe y Poesia Europea. (Buenos Aires 1946).

20. Reinhart P. Dozy. Historia de Los Musulmanes de Espana. (Traduccion Espanola. Buenos Aires).

21. Reinhart P. Dozy. Supplément aux dictionnaires arabes. (Leyde Paris 1927).

obeikandl.com